

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01332 1991

توفيق الحكيم

أفكاره وآثاره

مصطفى







أحمد عبد العزيز مصطفى

ماجستير في الآداب
ومعيد بكلية الآداب - جامعة إبراهيم

802920

توفيق الحكيم

أفكاره . آثاره

١٢ يولية سنة ١٩٥٢

الطبعة الثمونية
١ مكتبة الناشر بالجمعية المدرسية

02-86165

put ~~the~~ in

PS
7828

K52

Z8

1952

أحمد عبد الرحيم مصطفى

ماجستير في الآداب
ومعيد بكلية الآداب - جامعة إبراهيم

١٠٢
٢٧
١٠٢
٢٧

توفيق الحكيم

أفكاره - آثاره

١٩٥٢

المطبعة والنشر
بمكة المكرمة

OCLE
32215211

B11956999
13266779



11.9
2.5.7

790011

المثل
صنعك (المعاني)

الاهراء:

إلى الشموع التي تحترق لتنير لغيرها الطريق
إلى القلة التي استهوتها المثل فلم يحرفها التيار
إلى الذين سبقوا عصرهم فعاشوا أغرابا
.....

إلى الأمل الذي لا يفنى
إلى الألم الذي يلهب فيرفع

.....

إلى المثل الأعلى

٢٢٢٢٢٢٢٢

هذا كتاب عن «توفيق الحكيم» بنى على الدراسة الشاملة لآرائه
وأثاره .

وقد حاولت في عرضي له ولإنتاجه ومركزه بين قادة فكرنا الحديث،
أن أحيطه بعالمه ومجتمعه ، حتى تسهل عملية الربط بين المؤثر والمتأثر . فقد
أصبح جليا — على ضوء علم النفس الحديث — أن هنالك تجاوبا بين
الفرد وبيئته — تجاوبا يزداد قوة وضعفا بحسب درجة فاعلية الأثر
وحساسية المتأثر .

وآثرت في هذا البحث أن أضع الأفكار والآراء بنصها . ولم أشأن
«أترجمها» ؛ حتى تخرج الى القارىء مطابقة لأصولها ، وحتى يمكن
لى — عن طريق هذا المنهج — أن أقدم المترجم له إلى القراء خلال نماذج
مختلفة من أسلوبه وأفكاره . فعمساي بذلك أن أكون قد وضعت الصورة
— التى أبغى عرضها — فى إطارها العام .

ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أشكر حضرة الأستاذ الدكتور مهدى
علام أستاذ الأدب بكلية الآداب بجامعة إبراهيم لتفضله بمراجعة هذا البحث ،
ووضع مقدمة له . فله منا وافر الشاء وجميل التقدير .

أحمد عبد الرحيم مصطفى

القاهرة فى ٦ غسطس ١٩٥٢

مقدم

بقلم حضرة الأستاذ الدكتور مهدى علام
وكيل كلية الآداب — جامعة ابراهيم

في هذه الفصول دراسة تاريخية لعصر توفيق الحكيم وأفكاره ، تدل على أن كاتبها قد عاش حقبة طويلة مع الكاتب القصصى العظيم ، فعرف عنه وعن عصره وأفكاره المهاد أو الصورة الخلفية التي بدأ منها ، وتطوره في مراحل تفكيره ، ووصل به إلى آخر كتبه التي أخرجها حتى اليوم . ولو شاء لاطلع على أصول كتابه الذي أراه معلنا اليوم في الصحف عن « المرأة الجديدة » ليستكمل به الفصل الذي كتبه عن رأى توفيق الحكيم في المرأة .

وأمتع ما في هذا الكتاب الفصل الذي تناول فيه المؤلف عصر الحكيم ، فقد عرض فيه عرضا فنيا تاريخيا للعوامل التي تفاعلت في حياة الأدب العربي حتى وصلت إلى يد الكاتب القصاص ، ثم أبان ما استحدثه كاتبنا العظيم في هذه الحياة الأدبية الزاخرة . ولست أوافق على جميع المقدمات التي بنى عليها المؤلف نتائجه ، ولا على جميع النتائج التي انتهى إليها . ولكن ذلك لا يحول بيني وبين أن أقرر أنه بذل جهدا جليلا مثيرا للتفكير في ناحية مازلنا في أشد الحاجة إلى الكتابة فيها فتوفيق الحكيم وفنه قد حظيا بالتقدير الرسمي والشعبي ولكنهما مع ذلك مازالا في احتياج إلى التقدير الدراسي . فالكتاب والعلماء يتهيبون الكتابة عن الأحياء كتابة علمية مستفيضة ، مكثفين بالمقالة السائرة ،

أو المحاضرة العابرة . وما زال كثير من زملائي في الجامعات المصرية يحاولون أن يشنوني عن اتخاذ الكتاب والشعراء الأحياء موضوعات لرسائل البحوث للماجستير والدكتوراه . كأنما يجب أن يموت الكاتب أو الشاعر قبل أن يصبح أهلاً للدراسة الجامعية المستفيضة . وهم يبنون إحجامهم على عدة اعتبارات : منها أن العلاقات الشخصية القائمة بين الكتاب والشعراء من جهة ، والذين يتناولونهم بالدرس من جهة أخرى ، قد تكون عائقاً عن تسطير ما يرضى الأدب والتاريخ ، محاباة أحياناً ، أو تحاملاً أحياناً أخرى . ومنها أن بعض الكتاب والشعراء ربما لا يرتاحون إلى الأحكام الصادرة التي قد تصدر على آثارهم الفنية من محيط الجامعات . ومنها أن الكاتب أو الشاعر - قبل أن يودع الحياة - لا يكون قد اكتمل . وفي تناول آثاره قبل أن يكون قد فرغ منها كلها ما يستلزم نقصاً في الحكم الذي يصدر في شأن فنه .

وأنا أرى أن « الموضوعية » التي يفرضها البحث الجامعي يجب أن تكون حماية للأساتذة وطلابهم الباحثين ، وبذلك لا يتأثرون بعلاقاتهم الشخصية ، بل ينبغي أن يكون في ذلك أعظم تدريب للطلاب الباحثين على النزاهة العلمية في البحث . كذلك ينبغي أن ندرك أن رسالة المؤرخين للأدب في الجامعات تتضمن رياضة المنتجين للأدب في البلاد على قبول الأحكام العلمية عنهم وعن آثارهم الفنية ، ففي ذلك سبيل التقدم الذي ينشده النقد الأدبي الناضج . أما عدم اكتمال الآثار الأدبية للكاتب أو الشاعر الحي ، فأمر جدير بكل اعتبار . ولذلك أميز بين الكاتب الذي كتب كتابين أو ثلاثة كتب والكاتب

الذى كتب عشرين أو ثلاثين كتابا ، والشاعر الذى نشر ديوانا أو ديوانين ،
والشاعر الذى نشر مئات القصائد . وبعبارة أخرى : هناك من الأدباء الأحياء
من يمكن اعتباره صاحب مذهب قائم فى فنه ، قد أثبتته القدر الكافى من
آثاره الفنية . ومن غير المحتمل أن يعدل فيما يكتب بعد ذلك بما يهدم ما أسسه
لنفسه من فن .

قلت إننى لأوافق على كل ما جاء فى هذا الكتاب ، وليس لى ولا لمؤلفه
أن يطمع فى أن يوافق كل قارئ على ما جاء فيه . ولكن هناك أمورا أرى
أنه ينبغى أن يكون عليها اتفاق عام . فمثلا للمؤلف أن يرضى عن شعر الجارم
أو يضيق به صدرا ، فهذه مسألة ذوق ، آخر الأمر . ولكن الذى أخالفه فيه أن
يقول عنه : « ومن هؤلاء على الجارم الذى كان يتوخى التقاط الغريب من
الألفاظ والمجلجل من الوزن . » فليس فى هذا إنصاف للحقيقة . فمع أن
المقدمة التى كان يتكلم فيها المؤلف من أن هذا الاتجاه كان سائدا مقدمة مسلم
بها ، ليس الجارم أقوى مثال له . ولو قال محمد عبد المطلب مثلا لكان أقرب
إلى الصواب .

كذلك أنحى المؤلف باللائمة على البارودى فقال إنه التزم أساليب
ديوان الحماسة . وهذه حقيقة لا ننكرها ، ولكنها لا تبرر ما يرمى به المؤلف
البارودى بالجمود دون التجديد فالبارودى الذى عده المؤرخون بمجددا فى
الشعر العربى لم ينظر إليه على أنه مستحدث لما يسبق إليه ، وإنما كانت رسالته
أن يحيى الشعر العربى القديم وأن يرفعه عن مذله الخنوع والتهلل الذى هو

إليها في عصر الممالك ، فالبارودي — وإن لم يحدد — قد أحيى التراث القديم في صورة حديثة كانت درجا قويا في سلم الشعر الحديث .

وقد غمط المؤلف المنفلوطي في تجديد النثر . فنحن لانستطيع أن نوافق على دعواه أن « هذا الأسلوب الذي كان في عصر المنفلوطي آية من آيات البلاغة لا يخرج في وقتنا الحاضر عن موضوع من موضوعات الإنشاء التي يضعها تلاميذ المدارس الثانوية . » ولو أن تلاميذ المدارس الثانوية يحملون موضوعاتهم ، ويعبرون عن أفكارهم ، كما فعل المنفلوطي في الموضوع الذي اقتبسه المؤلف وعلق عليه بهذا التعاليق ، لكانوا في غنى عن مدرسيهم ، ولكان حال اللغة والأدب وبيننا الآن حالا سعيدا حقا .

ويعيب المؤلف على الشعر العربي القديم التزامه « لتلك البحور والقوافي التي تحصر فكر الشاعر في قالب يحد من انطلاقه » . ولست أريد أن أناقشه في أثر وحدة القافية ، مع ما اتسعت له القافية العربية من أفكار على السنة فحول الشعراء ، ولكن الذي ينبغي أن يعلمه المجددون - ولست أريد بذلك أن أقف حجر عثرة في سبيلهم - هو أن بحور الشعر العربي القديم من السكثرة والمغايرة بحيث تغني كل ذوق ، وتشبع كل غرض .

وحسبنا أن نذكر أن البحور التقليدية ، بما لها من أضرب ، تصل إلى أربعة وستين وزنا . ولا نشك في أن في هذا العدد ما يكفي من لا يريد أن يتبرع بالعيب في الأوزان القديمة لمجرد أننا ورثناها لقمة سائغة .

ومن أهم ما عرض له المؤلف في هذا الكتاب ما كتبه عن رأي توفيق الحكيم

في رسالة الأدب . فقد تساءل المؤلف : هل للأدب أن يخدم أغراضا أخلاقية واجتماعية ؟ أم يقتصر على المتعة الفنية وحدها ؟ ثم يجيب بأن توفيق الحكيم يناصر قصر الفن على المتعة الفنية . ويستشهد على ذلك بقول الحكيم : « فلا أتصور فنا لا يصور الرذيلة كما يصور الفضيلة ، ولا يبرز القبح كما يبرز الحسن ؛ وإن الدين أيضا في تنزيله يصور لنا رجس المشركين ، وإثم الكافرين ، وقبح الأشرار والمفسدين ، كما يبرز لنا فضل المؤمنين ، وإحسان المحسنين ... وليكن المقصود ليس حرية التصوير ... فهذه مكفولة في الفن ، ملحوظة في الدين ... إنما المقصود هو ذلك الإحساس الأخير الذي ينقله الفن والدين في النفوس . »

وهذا الموضوع غير واضح في أذهان كثير من الكتاب ، فوصف الرذيلة ، وتصوير القبح ، قد يكون درسا أخلاقيا ، وقد يكون فنا مجردا . فإذا كان مرمى التصوير هو تقييح الرذيلة ، كان وعظا وإرشادا (مع بقائه فنا من فنون الأدب) . وإذا كان التصوير لا ينظر إلى الحض أو التحذير كان أدبا مجردا . فلاستشهاد بأن القرآن الكريم قد صور رجس المشركين ، وإثم الكافرين ، وقبح الأشرار والمفسدين ، لا ينهض دليلا على أن رسالة الأدب هي ألا يخدم أغراضا أخلاقية . بل هو على العكس من ذلك يؤيد أن الأدب قد يخدم أغراضا أخلاقية

على أن توفيق الحكيم أشد وضوحا وأقوى حجة على التدليل على مذهبه عندما يقول في موضع آخر : « لا ينبغي أن نمل على الفن اتجاهها بعينه ، ولا

يجوز لنا أن نوصيه بارتداء لباس الحكمة الرزينة أو رداء الإصلاح
الوقور . . . إلا أن يشاء هو ويرضى . « هذا رأى واضح لمذهب يرتضيه
توفيق الحكيم ، وله أن يعتنقه وأن يدعو إليه ، فلا كان فن ، ولا كان أدب
لا يشعر صاحبه بحريته . ولكن نفس هذه الحرية هي التي تخولنا أن نخالفه
في فهم فن الأدب — في فهم الفن في صورة أدب — فليس يضيره ، بل مما
يرفع قدره ، أن تكون له أحيانا رسالة إصلاحية . أفلا يسمى ما كتبه
إيسون ، وبرناردشو ، وه . ج . ولز مثلاً أدبا ؟

ومع ذلك فالمؤلف يقرر أن توفيق الحكيم : « يعزو تأخر حركة
الإصلاح الاجتماعى فى مصر حتى اليوم إلى تقصير الكتاب والأدباء
فلم يكن الأدب فى مصر أداة تسجيل وتوجيه لشئون المجتمع ، ولم تكن
أقلام الكتاب أبواقاً توظف النائمين . ولكنها كانت معازف ينعس على
أنغامها المترفون . أما هو فقد كان فى طليعة من تصدوا للكتابة الاجتماعية ،
فلم يترك شيئاً بالياً فى مجتمعنا إلا سلط عليه طريقته الفنية فى وضوح
وصراحة »

ثم ماذا نسمى — إذا لم نسمه أدبا رائعا — ذلك الذى نقله المؤلف من
آراء توفيق الحكيم فى آخر الفصل الذى عقده عن المجتمع ؟ ألم يعتل فيها
توفيق الحكيم الفنان منبر الوعظ والإرشاد لأمته ، بما تحمده له أمته ، وبما
يتمتع به قارئه ، وبما ترتفع به — إن هداه الله — أخلاقه ؟

وبعد — فلست هنا بسبيل مناقشة ما جاء في هذا الكتاب من آراء
أوافق على أكثرها ، وأخالف أقلها . ولكنني يسعدني أن أقدمه للقراء
اعترافا بجهد المؤلف وفضل توفيق الحكيم على الأدب العربي ؟
حدائق القبة في ٦ أغسطس ١٩٥٢

مهدى علام

حركة التجديد في الأدب العربي الحديث

مصر — بسبب موقعها الجغرافي الفريد — ملتقى الحضارات على مر العصور . قصدها الغزاة طمعاً في ثروتها وخيراتهما ، وقصدها التجار من الشرق والغرب على حد سواء . فلم يعرف العالم حضارة أو نهضة لم تتأثر بها مصر من قريب أو بعيد أو تؤثر فيها بدورها ، لدرجة أن التاريخ المصرى العام صالح إلى حد كبير لكي يكون نواة لدراسة الحضارة العالمية بأسرها . ومصر في إبان تاريخها الطويل لم تقصر تقصيراً مقصوداً في المساهمة في أوجه النشاط الذهني العالمي . فهي تعطي في أوقات تفوقها وتأخذ في أوقات ضعفها . وهي في ذلك كله مركز الإشعاع دائماً بالنسبة إلى الفكر الشرقى الذى اصطبغ منذ الفتوح الإسلامية بالعروبة والإسلام . فليس من عجب إذاً أن تنهض الحياة الفكرية الشرقية أو تنعكس فوق علو المؤثرات التى تحيط بمصر أو وراء انخفاضها .

ولا يعنى التاريخ المصرى الطويل فترة أوديت فيها الحركة الفكرية المصرية قدر فترة الحكم العثمانى . فان الأتراك العثمانيين لأسباب حرية ودينية آثروا أن يعزلوا ملكهم جميعاً عن العالم الأوروبى الذى كان يزخر في فترة التفوق العثمانى بمقومات لازلنا نلحس بعض آثار قصورها الذاتية . ومما ضاعف في هذا الأثر أن الأتراك أنفسهم لم تكن لديهم حضارة من

الممكن أن تعرض بعض آثار هذه العزلة . وهم لم يستغلوا وضعهم كحلقة اتصال بين الشرق والغرب ليقوموا بالإشراف على عملية المزج بين التراثين الشرقي والغربي . وكذلك لم يحاول الأوربيون أنفسهم أن يتجهوا اتجاها جدياً إلى الملك العثماني ، فقد شغلوا عنه بالكشوف الجغرافية التي باعدت بينهم وبين الاتصال بالشرق الأدنى .

وقد ترتب على حركة الكشف الجغرافية أن اضمحلت التجارة الشرقية ، وكان لذلك أثره المباشر في ضيق ذات يد المصريين ، وما صاحبه من ضيق الأفق . فان الثروة والاحتكاك لكل منهما أثره في نشاط الفكر العام والخاص . وبالرغم مما يلصق بالعصور الوسطى من ظلام فكري ، فإنها لم تعدم قيام المفكرين في الشرق والغرب . ولم تعدم أيضاً الاتصال بينهما ، مهما يكن اتصالاً مشوباً بطابع التعصب الديني . . فعلى سواحل الشام ومصر حدث الاحتكاك بين العقليتين في أثناء الحروب الصليبية . وبفضل النشاط التجاري الذي أسهمت فيه البندقية ومصر بنصيب بارز ، استمر الأخذ والعطاء بينهما .

أما في العصر العثماني فقد برزت آثار العزلة التي ضربت أطناها على مصر وغيرها من أقطار الشرق الأدنى ، بما ضاعفها من فقر وإيثار الناس للعافية . فكانت الطامة الكبرى التي أصابت الفكر الشرقي حين جفت الينابيع التي كانت تغذيه دائماً . وليس أقتل للفكر من العزلة ، فإنها تستتبع الجمود وتحجر العقول وتأسن الأفكار وفقدتها حيويتها . وقد انحطت

أساليب اللغة في هذه الفترة فباتت ركيكة لا تحس فيها بلاغة أو معنى .
وفشا استعمال الأساليب العامية والحلى اللفظية ، وقل الإنتاج الذهني ،
إذ أن الكتاب اقتصروا على استعادة الكتب القديمة وشرحها والتعليق
عليها . وحينما قرأت لهذا العصر وجدت آثاراً واضحة للخمول الفكري ،
والعزلة الواضحة ، ولا نخطاط البارز . خذ مثلاً لذلك عبد الرحمن الجبرتي
الذي ظهر في مصر في أواخر الحكم العثماني ووضع كتابه (عجائب الآثار
في التراجم والأخبار) فبالرغم مما في هذا الكتاب من المعلومات التاريخية
المهمة ، فإنه يتميز بأسلوب سقيم ، وضيق أفق في الجري وراء الأسباب
والنتائج . جاء في وصفه لثورة أكتوبر ضد الفرنسيين : « كثر اللفظ وتجمع
الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم . وأصبحوا يوم
الأحد متحزبين ، وعلى الجهاد عازمين . وأبرزوا ما كانوا أخفوه من
السلاح وأدوات الحرب والكفاح .. وتجمعوا ... وهدموا مساطب
الخوانيت ، وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة ، لتعوق هجوم العدو
في وقت المعركة . ووقف دون كل متراس جمع كبير من الناس .. ولما
سقط عليهم القنبر ورأوه ، ولم يكونوا في عمرهم عاينوه ؛ نادوا يا سلام
من هذه الآلام . يا خفي اللطاف نجنا مما نخاف .

وجاءت الحملة الفرنسية مؤذنة برجوع مصر إلى المشاركة في الفكر
العالمي . كانت هذه الحملة تمثل أوروبا التي طفرت إلى الامام خلال ثلاثة
قرون ، عرفت فيها الطباعة والبارود والبوصلة ، كما عرفت الأساليب

العلمية الحديثة ، والمبادئ الفلسفية التي تعتبر الثورة الفرنسية بعض نتائجها . أما مصر فكانت لاتزال تمثل العصور الوسطى ، والفارق كبير بين العقليتين بمقدار الفارق الزمني الطويل الذي قطعناه في تأخر وقطعته أوروبا في تقدم . وحدث الأثر الجديد في مصر في عهد الحملة الفرنسية ذاتها وإن كان قد بدأ ضعيفاً . فالمصريون قد ذهلوا لما رأوا في الفرنسيين من عادات وأخلاق وأفكار تختلف عن عاداتهم وأخلاقهم وأفكارهم اختلافاً تاماً . كما ذهلوا لمقارنته تأخرهم بتفوق حكمهم الجدد . وتلحظ ذلك كله في الجبرتي ذاته فانه يمثل أفكار عصره . ومما يدل على الأثر الجديد الذي امتد إليه أنه بات بعد وفود الفرنسيين إلى مصر أكثر نقداً وجرياً وراء الأسباب والنتائج . وقد قل تعصبه الاعمى للدرجة التي أدت به إلى تمني زوال العثمانيين .

ومنذ الحملة الفرنسية لم ينقطع الاتصال بين مصر وأوروبا ، بل إن الحوادث قد أدت إلى اتساعه واستدامة آثاره . فقد ازداد هذا الاتصال وخاصة في عهد محمد علي وحفيده إسماعيل : أرسلت البعثات إلى أوروبا ، وتدفقت الجاليات الأجنبية على مصر ، واتسعت حركة التعليم ، وظهرت الصحافة ومن ورائها الرأي العام الذي ألهمته النوازل التي أملت بمصر والشرق بسبب حركة التوسع الاستعماري والرأسمالي من جانب الغرب . واجتمعت كل هذه العوامل لتثبت أقدام النهضة المصرية الجديدة ، ولو أنها حتى الآن لم تكتمل أو تستقر الاستقرار الكافي — إذ أن هناك عوامل لاتزال تصطرع

في مجتمعنا وفي قرارة تفكيرنا ، منها الاصطدام بين القديم والحديث ، وبين الاقتباس عن الغرب أو محض الرجوع إلى تراثنا القديم .

وقد بدأت نهضتنا الفكرية باتجاهين متوازيين : الترجمة لآثار الفكر الغربي ، وبعث تراثنا القديم . وبمرور الزمن امتزج الاتجاهان ولا زال كل منهما يفعل فعله في تفكيرنا وأدبنا المعاصرين ، مع وضوح أن الأثر الغربي قد أخذ يطغى طغيانا بارزاً على التراث العربي القديم . ويقال في قوانين التطور إن البقاء للأصلح — فهل يقيض للأجيال القادمة أن تشهد نتيجة هذا الأخذ والجذب بين العاملين ؟ وهل يمكن التوفيق بينهما ؟ وهل نترك هذا التوفيق للتطور الزمني ، أو نعمل على توجيهه ؟ هذه كلها أسئلة لا بد أن يعرض قادة فكرنا ورجال تربتنا للإجابة عنها حتى يأخذوا بيد الأجيال القادمة ، بدلا من أن يتركوها تنافح وحدها ويبدأ كل منها الطريق من أوله .

وإذا ما قارنا بين نهضتنا الحديثة والنهضة الأوربية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، أمكننا الاستفادة من دراسة تاريخهما المقارن . فان عملية البدء تكاد تتشابه في النهضتين . ولما كانت النهضة الأوربية سابقة على نهضتنا فان في دراستها فائدة كبرى إذا ما حاولنا التأريخ لاتجاهاتنا الفكرية المعاصرة . والبناء الجديد يستلزم دائما أن يوجد له الأساس الذي يبنى عليه . فلم توجد حضارة ما أو حركة عقلية قامت طفرة واحدة ، أو وجدت دون أن يكون لها ماض تتركز إليه . بغض النظر عن الحضارات الأولى التي قامت على محض المحاولة والخطأ واستلزمت أجيالا وقرونا عدة لكي تغرض نفسها . وهنا

تظهر قيمة التقاليد الموروثة بما فيها من الصالح والطالح — فحتى الثورة على القديم تسليتم وجود هذا القديم حتى تكون هناك ثورة .

بدأ الغربيون بالإعجاب بآثار اليونان والرومان الأقدمين ، فجعلوا من فرجيل وهومر وهوراس وغيرهم مثلهم الأعلى . وقد قيل في تعريف هذه النهضة أنها تجديد الميلاد (Renaissance) أو البعث لهذه الآثار القديمة . وبمرور الزمن أصاب حركة التجديد هذه ، تجديد آخر وثن وثالث ... الخ حتى أصبحت اليوم تدرج تحت اسم (الدراسات الكلاسيكية القديمة) . فهي اليوم بالنسبة إلى الفكر الغربي مجرد آثار وتحف ينظر إليها نظرة مترونة بالإعجاب والعرفان بالجميل .

كذلك امتازت نهضتنا الحديثة بالإعجاب بأدبائنا القدماء كالمثني وأبي العلاء والجاحظ وابن الرومي وعبد الحميد الكاتب ... الخ الخ الخ . وذلك أن طلائع كتابنا قد نظروا إلى تراثهم العربي القديم على أنه مثل أعلى ، وآمنوا بأن ليس في الإمكان أبدع مما كان في صدر الحضارة الإسلامية ، حتى أن البعض قد يغالى فيرجع إلى شعر المعلقات السبع واضعا إياه نصب عينيه إذا ما حاول أن ينشد شعرا . ومن هؤلاء على الجارم الذي كان يتوخى التقاط الغريب من الألفاظ والمجلجل من الوزن .

والبارودي — الذي يعتبره النقاد زعيم حركة التجديد في شعرنا الحديث — نجده صورة طبق الأصل من الشعر العربي القديم دائماً الرجوع إلى الوراء ، والالتزام بالألوان التي حددها ديوان الحماسة . فهو الشاعر الفخور المداح

الرائي الغزل ، الذي يحاول أن يجمع بين دولتي السيف والقلم ، مزج بهما شعره في لفظ رصين يهدر كالموج .

وشوقى ذاته شاعر عربي إسلامي في جوهره ، لم يبتكر جديداً في ألوان شعره أو معانيه ، ولم يخرج عن كونه (أبا الطيب المتنبي) يعيش في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وذلك رغماً عن كونه قد تأثر بعض الشيء بالمؤثرات الغربية بفضل اتصاله بأوروبا بين وقت وآخر ، بالإضافة إلى تلقيه بعض علومه بها ردحا من الزمن . فشوقى مؤمن بقدس أخوة المسلمين ، ويعبر عن أفكار الجامعة الإسلامية كما بدت واضحة منذ أواخر القرن الماضي على يد السلطان عبد الحميد الذي حاول أن يحيي في ذاته خصائص الخلافة وإمامة المؤمنين . وهو محافظ في اللغة يرى في التراكيب العربية القديمة متسعاً لكل صورة ولكل معنى ولكل فكرة ولكل خيال . « وحكمة شوقى وما يصدر عنه من وصف وغزل وما يميز شعره جميعاً يبدو كأنه شرقي عربي لا يتأثر بالحياة الغربية إلا بمقدار . وهذا طبيعي مادام شوقى شاعر العرب والمسلمين ، ومادام يجد في الحضارة الشرقية القديمة ما يغنيه عن استعارة لبوس المدنية الغربية إلا بالمقدار الذي تحتاج إليه أمم الشرق في حياتها الحاضرة لسيرها في سبيل المنافسة العامة . ولقد ترى شوقى يغلو في شرقيته وعربيته أحياناً . ولقد تراه يتعمد ذلك في لفظه ومعناه . وسبب ذلك هو ما يراه من ضرورة مقاومة النزعة القائمة بنفوس كثيرة تصبو إلى نسيان ما خلف السلف من تراث ، والأخذ بكل ما يلبع به الحاضر من رواء الغرب . وقد يكون غلو

شوق أكثر وضوحاً في جانب اللغة منه في جانب المعاني. فهو بمعانيه وصوره وخيالاته يحيط بما في الغرب بكل ما يسيغه الطبع الشرقي، وترضاه الحضارة الشرقية. أما لغته فتعتمد على بعث القديم من الألفاظ التي نسيها الناس وصاروا لا يحبونها لأنهم لا يعرفونها. ولعل سر ذلك عند شوقي أن البعث وسيلة من وسائل التجديد. (١)

ولا يخرج حافظ إبراهيم عن هذا الحكم من حيث احتذاؤه للشعر العربي القديم، فهو يرى في اللغة العربية « البحر في أحشائه الدر كامن »، وينعني على أبنائها تقصيرهم في الأخذ بألفاظها القديمة. وبالرغم من براعته في تصوير لواعج نفسه، وفي تجسيم بعض الظواهر الاجتماعية، فإنه لم يجدد، بل كان هو أيضاً كأنه أحد الشعراء القدامى، أما شوقي فقد جدد إلى حد ما بادخاله المسرحية الشعرية في الأدب العربي، ولو أنه حاول فيها أن يبرز جمال الشعر والعاطفة، ولم يتجاوز به إلى نوع من الخلق الفني للنفوس والأشخاص. فمثلاً « هاملت » و « عطيل » لشكسبير — مع ما فيها من جزالة الشعر وقوته — تمثلان في نفس الوقت لونين من ألوان البشر: المتشكك المتردد، والمندفع. المتهور. وذلك أن شكسبير كان يتعمق النفس البشرية من حيث نوازعها ودوافعها، فسر حيتها فضلاً عن كونها شعراً تمثيلاً، صورة نفسانية أيضاً.

.....

وكذلك كانت نهضة النثر العربي إلى الوراء لا إلى الأمام حين بدئها.

(١) محمد حسين هيكل — في تصديره للشوقيات.

فإن التجديد في النثر لم يعن الابتكار أو تعديل القديم بحيث يساير العصر ،
بمقدار ما كان يعنى تلخيص الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي . فالتسابق
بين الأدباء لم يكن في حيز المعاني ، بل في حيز اللفظ والحلية اللفظية . والمثال
المحتذى في هذا الميدان هو ابن العميد وبيديع الزمان الهمداني .

وقد حاول المنفلوطي أن يقرب بين الأسلوب العربي والآثار
الأوربية . ولكن عملية الربط هذه لم تتعد الأسلوب اللفظي ، ولم تصل
إلى منطقة الابتكار والخلق . (فنظراته) و (عبراته) إنهما إلا مجموعة
من المقالات المتفرقة بعضها مقتبس ، وبعضها الآخر موضوع . ولكنك
لا تجد فيها شيئاً جديداً يدل على ذاتية مخالفة لذاتية المثل الأعلى القديم . جاء
في النظرات بعنوان (احترام المرأة) : « ولا يستطيع الشيخ الفاني أن يجد
في أخريات أيامه في قلب ولده الفتي من الحنان والعطف ، والحب والإيثار ،
ما يجد في قلب ابنته الفتاة فهي التي تمنحه يدها عكازاً لشيخوخته ، وقلبها
مستودعاً لأسراره ، وهو اجس نفسه وهي التي تسهر بجانب سرير مرضه ليلاً
كله تتسمع أنفاسه ، وتصغى إلى أناته ، وتحرس الحرص كله على أن تفهم
من حركات يديه ، ونظرات عينيه ، حاجاته وأغراضه فاذا نزل به قضاء الله
كانت هي من دون ورثته جميعاً الوارثة الوحيدة التي تعدّ موته نكبة عظيمة
لا يهونها عليها ، ولا يخفف من لوعتها في نفسها أنه قد ترك من بعده ميراثاً
عظيماً . وكثيراً ما سمع السامعون في بيت الميت قبل أن يحف تراب قبره ،
أصوات أولاده يتجادلون ويشتجرون في الساعة التي يجتمع فيها بناته

ونسأؤه في حجراتهن نائحات باقيات . » ومثل هذا الأسلوب الذى كان فى عصر المنفلوطى آية من آيات البلاغة ، لا يخرج فى وقتنا الحاضر عن موضوع من موضوعات الإنشاء التى يضعها تلاميذ المدارس الثانوية .

كذلك نجد أن كتاب (حديث عيسى بن هشام) للمويلحى عبارة عن القالب الفنى القديم المأخوذ عن الحريرى و بديع لزمان الهمداني فى مقاماتها ، مع اختلاف بسيط فى الموضوع الذى يدور حوله الأصل . فبدلاً من أن يكون المجتمع العربى ، أصبح المجتمع المصرى . والأسلوب فى مجمله هو أسلوب المقامات . وهو لا يلتزم السجع والتكرار باستمرار ، بل نجده يسجع ثم يرجع ليرسل القول على سجيته . جاء فى طليعة هذا الكتاب : « حدثنا عيسى بن هشام - قال : رأيت فى المنام ، كائى فى صحراء « الإمام » أمشى بين القبور والرجام ، فى ليلة زهراء قراء ، يستر بياضها نجوم الخضراء ، فيكاد فى سنانورها ينظم الدر ثاقبه ، ويرقب الذر راقبه . وكنت أحدث نفسى بين تلك القبور ، وفوق هاتيك الصخور ، بعر ، الإنسان وكبره ، وشموخه بمجده ونفخه ، وإغراقه فى دعواه ، وإسرافه فى هواه ، واستعظامه لنفسه ، ونسيانه لرمسه . فقد شمع الغرور بأنفه ، حتى رام أن يثقب به الفلك ، استكباراً لما جمع ، واستعلاء لما ملك . . . الخ الخ . »

ولكن المويلحى فى ذلك كان خطوة لا بأس بها فى طريق تجديد الأدب العربى الحديث ، فقد جاء كتابه فى طليعة الكتب المؤلفة فى الأخلاق والعادات والنقد الاجتماعى . وهذه ناحية كان الأدب القديم قد أغفلها . فقد

عاش هذا الأدب للبلوك والكبراء والفخر والهجاء . ومن هنا كان بعده عن تصوير آمال الناس وآلامهم وعواطفهم . كان أدبا تبدو فيه الصنعة ، فهو من هذه الناحية مرادف للغة ، لا يدير التفاتا كبيرا إلى غيرها . وحتى الغزل الذى هو قرين العاطفة والمشاعر ، قد دخلته هذه الصنعة - فكنت تجدده (كليشيتها) تبدأ به القصائد ، وتلف وتدور ، وتستطرد من التشبيب ، والوقوف على الدمن والأطلال ، حتى تخلص فى النهاية إلى أغراضها . ويبدو وضوح هذا الغلو من حيث الشكل فى (التزام) الشعر العربى الأصيل لتلك البحور والقوافى التى تحصر فكر الشاعر فى قالب يحد من انطلاقه ولنقارن ذلك بعذوبة الشعر ورقته حين دخلت إليه الموشحات فى الأندلس ؛ فقد أصبح بتركيبه الجديد أطوع فى يد الشاعر ، وأقدر على تصوير احساساته .

ومن الإمعان فى هذا (الالتزام) دخول مثل هذه القيود إلى النثر . وهى قد كبَلته دهرًا طويلا بمعايير ليست منه ، وليست فى حدود طاقته . وإلى هذين السببين : انغزال الأدب العربى عن مجتمعه ، وإحاطته بقيود شكلية تحد من الانطلاق والابتكار - يمكن أن نرجع سهولة خضوعه لمعواذى الطقوس والتقليد فى فترات ركوده السابقة وفى فترة صحوته الأولى .

.....

ثم جاءت المرحلة التالية فى تاريخ نهضةنا الادبية الحديثة ، من بعد اتساع حركة التعليم ، وانتشار الصحافة والمجلات وتعدّد ألوانها ، وإمعاننا فى الاتصال بالفكر الغربى ، وبعث تراثنا الشرقى ، خاصة عقب افتتاح الجامعة المصرية .

وقد تميزت هذه المرحلة بالخطوة الحاسمة التي باعدت كثيرًا بين الأدب العربي الحديث وبين (القوالب) القديمة من حيث ظهور التجديد في الأسلوب الأدبي، والموضوع الفكري، وال قالب الفني. أو بمعنى أصح أن هذه الخطوة للنثر العربي قد تميزت بالتجديد في الخلق ذاته والابتكار...

وعلى رأس الذين أتيحت لهم هذه المرحلة من مراحل النثر العربي : لطفى السيد وعلي ومصطفى عبدالرازق وهيكمل والرافعي والزيات وأحمد أمين والمازني وتيمور وسلامه موسى وأبو حديد وزكي مبارك ومنصور فهمي وغيرهم...

ولكنني أرى الإشارة هنا بصفة خاصة إلى ثلاثة بالذات يمثلون في نظري خلاصة الاتجاهات المختلفة في الأسلوب والخلق في النثر العربي الحديث وهم : طه حسين، وعباس العقاد وتوفيق الحكيم.

فقد اتضح اليوم لكثير من النقاد والباحثين في أساليب أدبنا أن طه من حيث الأسلوب يمثل «الاديب» والعقاد يمثل «المفكر» والحكيم يمثل «الفنان». وتلك أضلاع المثلث في هرم الأدب العربي الحديث.

وطه حسين على قمة الطليعة التي عنيت باطلاق النثر على سجيته دون كبير تقيد بما كان يلتزم به القدماء من حلية لفظية. وهو الذي أدخل النقد في الأدب العربي الحديث، وأرساه على أصوله الغربية، وبسبب عمله الطويل في الجامعة المصرية، وفي ميدان الصحافة، استطاع أن يؤثر تأثيراً قوياً في الجيل الجامعي الذي يتصدى للحركة الأدبية الفكرية المعاصرة.

ومجهوده في هذا الميدان دائم الأثر لا يمكن أن تتناول إليه عوادي الإنكار. ويكفي في هذا المجال أنه أشرف على تخريج وتوجيه مدرسة جامعية تحررت من القيود القديمة وأخذت من بعد ذلك تواصل السير في طريقها الجديد بعد أن وقفت على قدميها.

ومع ثورة طه حسين على القديم، فانه أثر أن يلزم نفسه بموسيقى اللفظ وترديده ترديداً طويلاً — فهو يصول ويجول، وينتقل بك من فكرة إلى فكرة، ومن ميدان إلى ميدان، ويدور دورانا قد يطول حول المعنى الذي يقصد إليه، قبل أن يلقيه إليك. مثال ذلك ما جاء في (دعاء الكروان) حين يفرض ذلك الطائر على القصة ويجعله يناجي بطلتها في مواضع مختلفة منها. ولا يكاد يختفي حتى يظهر من جديد:

« لبيك لبيك أيها الطائر العزيز. ما أحب صوتك إلى نفسي إذا جثم الليل، وهدأ السكون، ونامت الحياة، وانطلقت الأرواح في هذا السكون المظلم، آمنة لا تخاف، صامته لا تسمع.

« إن صوتك إذن لا شبه الأشياء بأن يكون صوتاً لروح من هذه الأرواح، لئلا كرفي روح هذه الأخت التي شهدت مصرعها معي في تلك الليلة المهيبة الرهيبة، وفي ذلك الفضاء العريض الذي لم يكن من سبيل إلى أن يسمع الصوت فيه مهما يرتفع، ولا أن يحجب المغيث فيه لمن استغاث.

« لبيك لبيك أيها الطائر العزيز. ادن مني إن كان من أخلاقك الدنو. وآنس إلى أن كان من خصالك الانس إلى الناس. واسمع مني وتحدث إلى.

وهلم نذكر تلك المأساة التي شهدناها معاً وعجزنا عن أن ندفعها أو نصرف شرها عن تلك النفس الزكية التي أزهقت ، وعن هذا الدم البريء الذي سفك ... الخ »

أما العقاد فهو ناثر وناظم معاً . نجح إلى حد كبير في التوفيق بين القديم والحديث سواء في شعره ونثره . وفي كتابته لا تعدم أن تجد التراكيب العسيرة التي قد يعز فهمها على كثير من القراء . وهو كذلك يتصف بالعمق والتفكير ، وباصطناع العرض الجدلي والمنطقي والتحليلي ، مع قوة عارضة واضحة تماماً في كل ما يكتب . ونجده من ناحية ثالثة متأثراً إلى حد كبير بالفكر الغربي سواء في طريقة عرضه أو في تشبيهاته واستعاراته وكنائياته . وإذا كان طه حسين قد ارتقى بالأدب التصويري كما يتضح جلياً في كتابيه (الأيام) و (أديب) فإن العقاد قد أدخل إلى أدبنا الحديث الأسلوب التحليلي كما هو واضح في كتابه (سارة) جاء في وصف سارة .

« ومما لا ريب فيه أن سمات الاخلاق والافهام شيء يستكن في النفس قبل أن يبدو على أسارير الوجوه ، وأنها شيء لا يزول من النفس ، وإن زال أثره الظاهر في بعض الأحيان ، وأنه على قدر معاني النفس يكون تعدد الملامح وتعدد الوجوه ، وعلى قدر تعدد الوجوه يكون الأُنس بالمنظر المتجدد والمحضر المتعدد ، ويقل السأم ويعظم الشوق والنشاط إلى اللقاء » وسارة كانت من ذوات الملامح والوجوه اللاتي لا يطالعنك بمنظر واحد في محضرين متواليين : تراها مرة فأنت مع طفلة لاهية تفتح عينيها البريئتين في نهشة الطفولة وسداجة الفطرة بغير كلفة ولا رياء ، وتراها بعد

حين — وقد تراها في يومها — فأنت مع عجوز ما كرة أفنت حياتها في مراس
كيد النساء ودهاء الرجال . وتضحك ضحكة فتعرض لك وجهها لا يصلح لغير
الشهوات ، وضحكة أخرى — وقد تكون على أثر الأولى — فذاك عقل
يضحك ولب يسخر ، كما تسخر عقول الفلاسفة وألباب الشيوخ المحنكين .
« هي تارة أم رؤوم تفيض بخنان الأمهات حتى ليرشك أن تسع به
أطفال العالمين . وحسبك أن ترسمها هكذا ولا تضع في أحضانها طفلا يرضع
ولا إلى جانبها طفل يدرج ، لتستحق الصورة عنوان الأمومة .
« وهي تارة أخرى شريدة بوهيمية لم تستقر قط في دار ولا وطن ،
وما استقرت قط مع عشيق

« ولها صورة إلى جانب سرير ، لو نحت عنها السرير جانباً لمثلت لك
راهبة خاشعة تهم بالصلاة ، أو ضحية من ضحايا الآلهة تساق إلى محراب
القربان .

« ولها صورة على سمنح الهرم لو أخفيت منها الهرم خلفها
حورية مخمورة في أرض يونان القديمة تهم بالرقص في كروم
(باخوس) الخ الخ . »

واستعارة (القرايين البشرية) و (كروم باخوس) ليست من الأدب
العربي القديم في شيء . بل هي صور يونانية خالصة قد يستنكف الأدب
(المحافظ) قبولها لما فيها من تعارض مع بعض العقائد الراسخة . ونلن
مثل هذا في ديوانه — ففيه مثلاً (ثورة الملائكة) و (ثورة إبليس) وغير
ذلك مما هو في الواقع بمثابة ثورة في الموضوع الشعري العربي دون أي

التزام بالموضوعات الشعرية القديمة عند العرب .

وأما توفيق الحكيم - صاحب هذه الترجمة - فهو مجدد الأسلوب

الفنى فى الأدب العربى الحديث : أدخل عليه فن الحوار الذى استقر على

يديه استقرارا دائما فى أدبنا المعاصر . كما أقر فى الفن والأدب قوالب أخرى

مثل اليوميات ^(١) والاعترافات والرسائل ^(٢) والقصة الطويلة ^(٣) وكلها

ألوان لم يعرفها الأدب العربى من قبل على هذا الوضع الفنى الذى عرضه .

والحكيم لا يهتم كثيرا بالزخرف اللفظى ، وهو ينتقل بين اللغة العامية

فى بعض مسرحياته وقصصه حين يعرض للحوار الذى يصور بعض

طوائف المجتمع تصويرا طبيعيا ، وبين اللغة الفصحى الراقية حين يود إبراز

الأفكار العليا فى عرضه للقضايا التى تتصل بالإنسان ومصيره ، أو باتجاهات

ذهنية فلسفية . فهو من هذه الناحية فى طليعة الثوار من مفكرى العصر

على قيود اللفظ و (صناعة) الأدب . فالأدب عنده لا يلتزم إلا بالجمال

الفنى ومراعاة مقتضى الحال . وهذه هى الناحية التى يختلف فيها عن زميله

الآخرين . فطه حسين متنقل بين القديم والحديث ، لا يكاد يستمع إلى

(صوت باريس) حتى يستهويه صوت أبى العلاء - ولا يكاد يعرض للفكر

الغربى حتى يتمثل له المتنبى . وعلى العموم نجد أن الاتجاه الشرقى غالب على

الشكل الأدبى عند طه حسين ، وإن كانت أفكاره فى حد ذاتها وفى شمولها

أقرب إلى حد كبير من المثال الغربى . وقد سبق أن ذكرنا أن العقاد قد لا يخلو

(١) يوميات نائب فى الأرياف (٢) زهرة العمر والرباط المقدس (٣) عودة الروح الخ

طريقه العربية

الحوار

الترجمة

التي يصور بعض طوائف المجتمع تصويرا طبيعيا

من قصد الإيجاز - كما عرفته البلاغة العربية - في بعض الألفاظ والتراكيب.

على أن ظروف التكوين الأدبي عند الحكميم تختلف إلى حد كبير عن ظروف طه حسين والعقاد. حتماً إن طه قد عاش في أوربا بعد التحاقه بالجامعة القديمة، ولكن القيود الخاصة المفروضة عليه وحده باعدت بينه وبين الاندماج الكلي في الحياة الغربية. ولذلك فإنه لم يعرف منها أكثر من الجانب الأكاديمي. والعقاد لم يعيش كثيراً في أوربا. وإنما كان أكثر ملامسته لأفكارها عن طريق القراءة في أغلب الأحوال. ومن هنا كانت نشأة كل من طه حسين وعباس العقاد لها آثارها في إنتاجهما.

٢٨ (*) أما الحكميم فهو ربيب الفن في مصر وباريس. وهو كذلك الجامع المازج بين عصارة كل من الأدب والفن بمعناها الواسع. عاش في باريس بعد الحرب العظمى الأولى، حين كانت حركة المودرن ترم طاغية على الفن والفكر الغربيين. فالفكرة المسيطرة على الفن حينئذ كانت هي الفطرة والبساطة. «يطلبون في الفطرة النضارة. ويذهبون في البساطة إلى حد التركيز». لقد غالوا في التركيز لدرجة المزايدة بفصل عناصر كل فن عن الآخر فصلاً تاماً. فالتصوير وهو فن الألوان يجب أن يستغنى عن الموضوع، لأن الموضوع من عناصر القصة. والشعر وهو فن الشعور يجب أن يستغنى عن العقل الواعي...، والموسيقى وهي فن الأصوات يجب أن تستغنى عن الشعور. والنحت وهو فن الأحجام يجب أن يستغنى عن الأفكار... الخ الخ

وكان موقفه بالنسبة إلى المودرترم والكلاسيك يختلف عن موقف الأوربيين: فالقديم بالنسبة للأوربيين جديد عليه . فما باله بالحديث وهو جديد بالنسبة إلى الأوربيين ؟ لقد استطاع في أثناء إقامته بالعاصمة الفرنسية أن يهضم الحضارة الغربية في قديمها وحديثها بعد مجهود ليس بالقليل . وكان موزعا بين القديم والحديث ، يأخذ منهما بنصيب ولا يتحمس لايهما تحمسا دائما — يستمتع بما في اللوفر من روائع قديمة ، ويقف أمام كل صورة أو تمثال محاولا البحث عن مواضع برودتها وحرارتها ، ومحاولا أيضا أن يربطها بالفكرة الموحية إلى خالقها . وهذا لا يمنعه من التطلع إلى الفن الحديث (الفاقع) (الصارخ) . ويقرأ للكتاب الأوربيين القدماء ، واقفا على آثارهم وقفة طويلة للإلمام بدوافعها والمثالية التي تحيط بها . ثم يتابع دراسة الأدب المعاصر . ويستمتع بالموسيقى (الكلاسيك) ويحضر المسرحيات القديمة . ثم يعرج على الموسيقى والمسرح المعاصرين .

ولا ينفك ، في ذلك كله ، يربطه بحياتنا الفكرية والفنية والأدبية . ولا يني في المقارنة المستمرة بين التراثين ، واستكناه أسباب تأخر الأدب الشرقي بالرجوع إلى أصولها التاريخية . وخرج في النهاية ثراثة ثورة عارمة على انعزال الأدب العربي عن مجتمعه وإيثار الشكل وتطلعه إلى الورا ، دون أن يعمل على إطلاق الأديب لعنان مشاعره وإثباته لذاته .

ومن هنا كان الحكيم ليس فقط مجددا في الأدب والفن ، بل هو كذلك — وفي نفس الوقت مجددا في الفكر والنظرة الاجتماعية والأخلاق ولعل قد حاولت إبراز هذا الاتجاه لديه فيما اخترته من أفكاره ومأثوراته .

عصر

عرف توفيق الحكيم كلا من مصر وأوروبا ، وأفاد كل جانب في تكوينه ، ولمس الحضارة الإنسانية في مرحلة حاسمة من تاريخها ؛ فقد شهد حريين عالميتين اكتوى العالم بنارهما في ربع قرن . وطبيعة الحرب الحديثة - بما تفنن الإنسان في اختراعه من أدوات الهلاك ، ومن المخترعات التي طوت عالم الزمن والمكان طيا - قد اقتضت أن يكتوى العالم كله بنارها ، سواء في ذلك الدول التي تشترك فيها أم تلك التي تقف على الحياد .

وأدى ذلك إلى اتجاه الحكيم في فكره وميوله إلى ناحية البشرية كلها ، فتمسك عنده تلك النزعة الإنسانية التي تخترق المعايير المعروفة ، فيشارك معنا فيها الحيوان . ومن هنا نراه يتصور حمار أفيلسوفاً (١) في عصر قل فيه الفلاسفة الحقيقيون من بنى الإنسان - حماره هو (صديقه) الذي فهمه دون أن يكلمه . أقحم على لسانه قدراً من تفكيره الصافي ، وأخرج لونا طريفاً من الحوار بينه وبين (صديقه) الحمار ، أو إن شئت فهو حوار بين الحكيم والمثل الأعلى الذي لم يجد في الإنسان فأنطق به الحيوان .

والإنساني فيه لا يعرف التعصب ، ولا يعرف الحقد والإحسان ، فهو ينظر للناس جميعاً نظرة واحدة ، ويدرسهم دراسة شاملة ، ثم يعود

(١) حماري قال لي وحمار الحكيم

فيتصور عصرًا تحل فيه المصافاة محل البغضاء ، فيرفرف السلام على وجه الأرض ، ونعيش في ذلك الفردوس الأرضي الذي هام به أصحاب المدن الفاضلة . يتمنى ذلك جاهداً وتجدّه دائماً محل تفكير مخلص من جانبه . ولكنه يرجع فينظر إلى هذا المثل الأعلى نظرة واقعية على ضوء ما بداخل النفس البشرية من غرائز ودوافع وأنانية .

ويتساءل : كيف يمكن أن يتحقق هذا المثل الأعلى ؟ ويجيب على ذلك بأنه قد يمكن إتمامه عن طريق تسلط مذهب واحد صالح على جميع بقاع المعمورة وهنا يتصور مدى ملل الناس للسعادة والتشابه والحياة التي لا تغيير فيها . فالحرب والكفاح والاختلاف والتغير مما يعطي الحياة طعماً ، فهي تحمل جميعاً معنى الأمل . وفردوس أرضي مسالم خير قد لا يرضى فينا حب المجهول ، ويطفئ إشباع الأمل والحافز المتجدد الذي يطالعنا به الغد المأمول . وحتى إذا أمكن الإنسان أن يقضى على (الفناء) ويخلد في الأرض نتيجة للتقدم العلمي الحديث ، ويصبح (الها) صغيراً ، يتعاطى (طعامه وغذاه) عن طريق الإمصال ، ويفكر بالإشعاع ، فانه سيحاول جاهداً أن يعود إلى العالم المنشود : عالم الموت . وحتى إذا تسنى لمذهب معين أن ينتشر ، فانه لا بد أن ينتج عنه مذاهب أخرى ما بين متطرفة إما لليمين أو للشمال .

وهو لا يمانه بوحدة الوجود والانسانية ، نجده في قرارة نفسه مؤمناً بوحدة

الحضارة . فان إنتاج العباقرة ليس ملكاً لهم أولاً وطائهم ، بمقدار ما هو ملك للنوع البشري جميعه . ليس هناك شرق أو غرب ، قديم أو حديث . ولكن

هناك عبقرية مملوكة للجميع ، في كل زمان ومكان . أرسطو وشكسبير والخيام وابن سينا — ليسوا ملكا لبلد جنسهم ، بقدر ما هم ملك لكل إنسان يفكر — في كل زمان ومكان ، فانتاجهم جميعا خالد يفهمه الناس في كل لغة ، لانهم لا ينتجون في الحيز الضيق ، بل يعالجون قضايا الانسان ، كل من زاوية ملكاته ، لأنها في الواقع قضايا ليست خاصة بفرد معين ، بقدر ما هي خاصة بالمعاني والقيم التي يشترك فيها البشر كافة . الجميع . الكل ملك للإنسانية ولو أنهم ينتسبون لأوطان معينة .

والفكرة الإنسانية قد وجدت هوى لدى طائفة المفكرين الكبار الذين نظروا إلى المجموع البشري كوحدة ، ثم بشروا بتحطيم القيود التي وضعها السياسة المحترفون ، والاقتصاديون المتعصبون ورجال التربية ذوو الميول الضيقة . وقد قيل اليوم : عالم واحد وحرية أربع . ولكن يارى هل من الممكن أن نحقق الوحدة العالمية في ظل الأوطان دون حاجة إلى محوها ؟ ولقد قامت محاولات مختلفة مثل عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة . ولكن التجربة اخفقت في المرتين لأن كل بلد يلحق شيبته منذ الصغر أن مصلحته الوطنية تسمو فوق كل اعتبار ، دون مراعاة لمصلحة الأوطان الأخرى . وإن الكارثة الكبرى التي حلت بالعالم من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٦ كانت نتيجة الإمعان في الضرب على وتر الإحساس القومي . في ألمانيا كانوا يقولون إن ألمانيا فوق الجميع ، وإن الجنس الآري يجب أن يسيطر على العالم لأنه أرقى الأجناس . وفي إيطاليا كان موسوليني يتغنى بمجد الإمبراطورية الرومانية ، ويهدد العالم بما لديه من

مئات الألوف من الحراب وفي انجلترا الاشياء أبدع في نظر الأمم التي تهدد طفلها من كيان الإمبراطورية ، دون لفت نظره إلى الشعوب التي يرفرف عليها (العلم البريطاني) ! والأنشودة المحبوبة هي : احكمي يا بريطانيا وحتى الفكرة الشيوعية التي كان من المفروض أن تكون دولية ، عادت واقتربت (بالوطن) الروسي ، و (الوطن) اليوغوسلافي و (الوطن) الصيني وعادت الوطنية فاقتربت بالأنانية والدم والحديد .

وأصبح لا يؤمن بهذه الفكرة العالمية إلا طائفتان : المثاليون الذين يحزنهم ما العالم سائر إليه من الخراب في ظل الفكرة القومية ، وحفنة من الاستعماريين الذين يبشرون بها في الأوطان المستعبدة ليقتلوا في أهلها كل إحساس بالوطن . والوطنية فيصبحوا مسالمين وقد نسوا ماضيهم ، فلا يحركون يدا في وجه غاصبيهم .

ومن هنا كانت المرارة التي نستشفها بين السطور حين تطالعنا أمنية الحكيم وقد أحاط بها المدفع . وقد قطر جسم الإنسانية : ما متفجرا يروى الأرض الطيبة التي لا تجف إلا لتروى من جديد .

.....

— ومع إيمانه بوحدة الحضارة ، فانه يحاول داخل إطارها أن يثير وعيا خاصا بقيام حضارة شرقية متميزة الروح ، وأن يقضى على عقد النقص التي تطالع الشرقيين حين يقرنون أنفسهم بالغربيين ، وأن ينفذ عنهم ذلك الغبار الكشيف الذي ران عليهم إبان الحكم العثماني . فهو ينقد جوانب الحضارة الغربية

التي غرقت في المادية والوحشية إلى أذنيها ، فتناست القيم والروح التي لاتزال
خميرتها مطمورة في الشرق العظيم ، والتي لاشك عنده في حيويتها المغمورة ،
وفي تحركها من جديد فيما لو نفّض أبناء الشرق عن أنفسهم غبار الماضي
واطرحوا تكاسل الحاضر . هو من التفاؤلين أو — إن شئنا — من الحتميين .
يؤمن بالتطور قدر إيمانه بأن الحضارة الشرقية جزء متميز له كيانه الخاص
داخل إطار الحضارة العامة المتطورة ، وأن سنة التطور لا بد راجعة بمرکز النقل
إلى الشرق حين يفنى الغرب نفسه بنفسه بمالديه من قوى مادية وأدوات هلاك .
ولكن كيف يقيم الشرق حضارة جديدة وهو حديث عهد بالنهضة ؟
اتجهنا إلى النتائج الغربي اتجاها قويا منذ القرن الماضي . وفي الواقع
نستطيع أن نقرن الحملة الفرنسية التي جاءت إلى مصر عام ١٧٩٨ بالنسبة
للشرق ، بحادث سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣
بالنسبة للغرب . كنا قبل ذلك في عزلة عن المقومات التي دفعت بالغرب إلى
الأمام . وفي ظل العزلة يضيق الأفق ، وهذا أشد نكبة للشعوب من ضيق
ذات اليد ، وإن كان العاملان قد أثرا فينا بعد الفتح العثماني لمصر
والشرق الأدنى .

وحين لامسنا الحضارة الغربية منذ القرن الماضي . أخذ النشاط يدب
في أطرافنا ، وبدأت الجداول الآسنة التي كادت تجف ، تعود إلى الحركة مرة
أخرى . ترجمنا عن الغرب ، فعرفنا شكسبير ، وجوته ، ودارون ، وموليير ، وديماس ،
وسان بيير ، وولن ، وشو ، وغيرهم . ومن ناحية أخرى بدأت عندنا حركة

(بعث) للتراث العربي القديم . ولم نجد هنا تلك الصعوبة التي وجدها الأوربيون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وذلك أن اللغة اللاتينية كانت قد تفتتت إلى لغات محلية في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا ، في حين أخذت اللغات الجرمانية تفرض نفسها على شعوبها ، فقامت اللغات الأوربية الحديثة وهي بعيدة بعداً متراوحاً عن الأصل اللاتيني المهيمن على الغرب كله في العصور الوسطى . أما اللغة العربية فإنها وإن تشككت في البلدان المختلفة وراء اللهجات المحلية فإنها لا تزال محتفظة برونقها العام . ومن هنا كان اتجاهنا إلى الجاحظ وأبي العلاء والغزالي والمتنبي أسهل من اتجاه الأوربيين إلى ثرجيل وهوراس وهومر وأفلاطون وأرسطو .

وهكذا وجدنا في حضارتنا الوليدة اتجاهين : أحدهما شرقي خالص والآخر غربي خالص ، ولكل منهما قيمته . وفي مفترق الطرق بدأنا نواجه سؤالين واضحين : هل نحى التراث العربي ونعش اللغة العربية بعد أن كادت تطمس معالمها في عصورنا الوسطى ؟ وإذا كان ذلك كذلك — فهل نحى اللغة العربية كما كانت في صدر الإسلام ؟ إذا أجبنا عن ذلك بالإيجاب ، بعدنا عن جادة الصواب ، ودعونا إلى قيام (أرستقراطية) لغوية لا يهضمها عصرنا الديمقراطي ، ودعونا إلى ذلك اللون الذي انطبع به تفكير معظم كتاب اللغة العربية في تلك الحقبة : الإطار اللفظي أولاً ثم المعنى في المحل الثاني .

ثم نقسمال عن الوجه الآخر : هل نتجه إلى التراث الغربي برمته ؟

إذا أجبنا عن ذلك بالإيجاب عدونا الصواب أيضا ، فلنا تقاليدنا وطبائعنا
وتراثنا الذى يسرى فى ضمائرنا ، بحيث لايسهل على كثير مناهضهم ذلك اللون
الغريب الخالص . فان دعونا إلى ذلك كنا أيضا داعين إلى (أرستقراطية)
أخرى يكون من السهل مهاجمتها .

ولكن لابد من تلاقى الاتجاهات الفكرية إن طوعا أو كرها ، فان
الحضارة الإنسانية مطلقا ومشاعة لا تعرف الشعوبية ولا تعرف التعصب
بل هى تحاول جاهدة أن تكون فى الناس كالماء فى الأوانى المستطرفة ، وإن
تشكلت فى البيئات المختلفة بأشكال متفاوتة . وإنما المهم أن يدرك من
يتحضر على أى المناهج يسير ، وعن أى الاتجاهات يأخذ . أى أن التقمص
الحضارى يجب أن يصحبه وعى وتنبيه وتوجيه وإلا كان نهبا للارتجال
والسطحية والتكلف والاهتمام بالقشور دون اللباب .

والجو الغربى الذى ينفذ على هذا النحو إلى حياتنا العامة والخاصة
جميعا يدفع بظواهرها إلى النضج العاجل . ولكنه يضعف فى نفس الوقت
من حيويتها الفطرية ويميل بها عن مجراها الطبيعى . فمادامت الظاهرة نصيبها
من التربة المحلية محدود ، ومادام انصالتها بالجو الخارجى متروكا لنفسه ،
بغير ضابط فأن هذا الجو الخارجى سيحملها على الارتفاع السريع فتصاب
بالسطحية والاضطراب ، والسقوط فى التقليد . يضاف إلى ذلك أن الصيغة
التي نضعها لمعالجة ظواهر حياتنا ، أيا كانت ، تنشأ عادة مشوهة بحكم اعتماد
واضعها على الاقتباس وبعدهم عن الناحية العملية من هذه الظواهر . ثم

إنها تظل ضعيفة فارغة مادامت هذه الظواهر ناشئة لم تكتمل ،
أو لم تبلغ السعة التي وضعت لها الصيغة المنقولة . فالمحكومون يقتدون في
بعض أفعالهم بما يطالعونه كل صباح من أخبار المجتمعات الأخرى ،
والحاكمون يغالون في الغالب فيما يقولون ليرضوا المحكومين ، ويرضوا
اتجاههم الفكري ، ويرضوا التيار الغربي الذي يحيط بهم . والجميع يصدرون
في أقوالهم عن تفكير دجيل ، ويصدرون في أفعالهم عن الظروف القائمة
لمجتمع ينتقل من حال إلى حال . (١)

من أجل هذا كله كان لابد من وجود الوعي ثم التوجيه إذا كنا نريد
لاتجاهاتنا الفكرية ولأوضاعنا الاجتماعية أن تسير متسقة متزنة وهذا
بما لم يفت الحكيم .

نجد مؤمنا بالحضارة الغربية إيمانا قويا ، ولكن على أساس ألا
تفقدنا ضميرنا الشرقي . فهو يدعو إليها كوسيلة لديب الحركة في جهودنا ،
وإنعاش تراثنا المظمور ، وفق قواعد التقدم العلمي والفني الحديث ، «فأخذ عن
الغربيين ما في رءوسهم وندع ما في نفوسهم . » نأخذ كل ألوان المعرفة دون
تفرقة بين جنس أو قومية . إذ الحضارة مشاعة للجميع . وهنا نلنس الفرق
بين الحكيم وطه حسين . أو نلنس العمل الذي يكمل به كل منهما الآخر . فطه
حسين الذي يستهويه القالب اللغوي وجرس الألفاظ والتكرار ، والذي

(١) انظر البحث الممتع الذي وضعه الأستاذ صبحي وحيدة : (في أصول المسألة
المصرية) خصوصا فصليه الأخيرين (دار نشر الانجلو - ١٩٥٠)

يحجي أبا العلاء، ويتقمص المتنبي في قرارة نفسه؛ من حيث تأثره بالتراث القديم، نجده هو أيضا الذي يقدم أندريه جيد، ويشرف على ترجمات مؤلفات ولز ودستوفسكي ومرميه وستندال وألدس هكسلي. كما نجده — مع إيمانه بنقل تراث الحضارة — أكثر تحمسا للثقافة الفرنسية خاصة، وأشد تعصبا للدراسات الكلاسيكية اليونانية والرومانية، ومن هنا كانت دعوته لتدريس اليونانية واللاتينية في المدارس الثانوية^(١). أما عند الحكيم فالحضارة الغربية كلها «لنا، نغترف منها، ونضيف إليها من ذوات أنفسنا... ونضيف عليها من مشاعرنا، ونطبعها بطابع مزاجنا وإحساسنا، يجب ألا تتحيز للواحدة دون الأخرى أو تتشيع». فهو ليس داعية إلى مجرد البعث والنقل... ولكنه داعية إلى التمثل والابتكار.

وهو باتجاهه هذا ينفي عنا تلك الفرية التي طالما رمانا بها الغرب زورا وبهتانا، من حيث اتهامه لنا بالتعصب. «وما من أمة في الأرض أبدت من التسامح والتساهل والحرية، ونبتت من الجمود والقيود مثلبا فعلت أمم الشرق إزاء الحضارة الغربية! فلقد فتحنا أعيننا عليها بضمار نقية، ونقبتنا فيها بحسن نية، واخترنا ما اعتقدنا أنه، ينفعنا في حياتنا الحاضرة، وما ينفي عنها شبهة التمسك بالبالى من المظاهر. وذهبنا في ذلك أحيانا أبعد مما ينبغي. فما وجدنا بأسا في أن ننقل عن الغرب كثيرا من الأرادية والأنظمة والقوالب والطرائق... فهي أعراض مما يلحق المدنيات القائمة، وأثواب

(١) مستقبل الثقافة في مصر.

كما يغلف العصور المتجددة ولكن الذى ما كنا نتهاون فيه قط هو :
الروح والجوهر . هنا نقول للغرب : قف ، وحذار أن تمس هذا الجانب من
الشرق . ومهما يكن من أمر اتهامه لنا بالرجعية فنحن أقدم منه عهدا وأكبر
سنا . ونحن نعرف أنه الآن فى شبابه المضطرب ونشاطه المتقدم لا يمكن أن
يتريث لبحث عندنا عن معونة . ولكن عندما يقعده الكبر ، وتذله
الهزيمة ، ويذهب عنه الغرور ، وربما وقف لحظة ، وتلفت لحظة يلتمس
الهداية . . . فلن يجد له عندئذ من هاد غير الشرق ، مهبط الحكمة ومنبع
النور . » (١)

ومن ناحية أخرى دعا مركب النقص المتشككين من الشرقيين فى أنفسهم
وفى شرقهم إلى إنكار وجود حضارة شرقية . وهنا نجد الحكيم يقف منهم
موقفا لا يخالف فى درجته موقف الغربيين الذين يرمون الشرقيين بالتعصب ،
فيرمى هذه الفئة الشرقية بالعمى والعقم والكسل ، ويحاول أن يعيد إليهم
ثقتهم بأنفسهم وبشرقهم . فانهاض الثقافة الشرقية لا يكون عنده إلا بنهوض
الشرقيين ، فيبدون أولا بالجرى واللاحاق بما وصلت إليه الثقافة الغربية .
كذلك نجد لا يقر تلك الفئة الأخرى من الشرقيين الذين يظنون أن
التحمس للحضارة الشرقية معناه الجلوس متدثرين فى أطمار حضارات بالية
يصعرون خدودهم ويصيحون بألفاظ نكرة مضحكة وفخر كاذب .

الثقافة الشرقية إذن لا يمكن أن تكون بمعزل عن ثقافة أوروبا ، ولا ←

أن تغمض عينيها عن هذه الثروة الهائلة . « فلنمد أيدينا غير مقيدتين بسلاسل
التقاليد أو العادات ... فنأخذ كل شيء ونهضم كل شيء ، ثم نخرج
على روحنا القديم كل في بلده ، فنستخلص الأفكار الثابتة المدفونة ، إذ
لا ريب أن كل بلد من بلاد الشرق فيه مناجم للفكر مفعمة متألفة لم
تستخرج بعد . فالغرب على نشاطه الفكري ونهمه الذهني لا يستطيع أن
يستخرج كل كنوز الشرق مثل الشرق ، إذ لا بد أن تكون معاولة قد
ارتطمت بحواجز منيعة من أسرار طبيعته لا تكشفها غير طبيعة الشرق
وغرائزه وتجاريب حكمته المتراكمة في أعماق نفسه على مدى آلاف
السنين . » (١)

← ومن هنا نجده يود تدعيم الثقافة الشرقية كلها ، والعمل على إنهاضها
لتقف إلى جانب الحضارة الغربية قوية غنية ، تقوم على دعائم من الإحساس
والتذوق والتغذى بمختلف الفنون ، فالثقافة ليست كلاماً تملأ به الرؤوس ،
ولكنها يقظة الملكات كلها والحواس ... وهذا الغنى لن يتأتى — في
نظره — إلا إذا عطف كل بلد من بلاد الشرق في أول الأمر على نفسه ،
ليستخرج من بطن الأرض التي يحيا عليها كل كنوز ماضيها . حتى إذا
اجتمع لدى تلك البلاد قدر من تلك اللآلئ القديمة مجلوة منزوعة عنها التراب ،
صب ذلك الثراء كله في معين واحد مشترك ، وقدم إلى الإنسانية باسم الثقافة
الشرقية . إذا استطعنا أن نطبع تلك المادة الشرقية المطمورة بطابعنا الخاص ،

ومزاجنا وروحنا ، وأن نخرج ثقافة حية نامية مستقلة بروحها ، يراها الغرب فكأنه يرى شيئا جديدا ، فأنتا نكون قد أدينا رسالتنا إلى هذا العالم ، مسيارين الفكر البشرى فى تطوره ، مساهمين بعلمنا ومواهبنا فى بناءه العظيم . وحينئذ يسترد الشرق اعتباره فى نظر الغرب .

والحكيم فى دعواته لهذا الاتجاه ، نجده يساهم فيه ويدلى بدلوه . فهو موسوعى التكوين الثقافى ، فلا يقف فى مطلق المعرفة عند حد زمانى أو مكانى - له نظراته فى كل لون من ألوانها سواء أكانت شرقية أم غربية ، قديمة أم محدثة . ومن فن وأدب ودين ، إلى علوم طبيعية ومباحث ميتافيزيقية . لقد أخذ عن الحضارة الغربية عصارة تراثها كله ، وطرائقها كلها ، لا ليحفظها مفروزة بل ليتمثلها ويضمها ويعود فيضفيها على الأدب الشرقى دما جديدا . يرينا الجاحظ وأبا العلاء فى نظرة جديدة وبمخرج أشعب فى ثوب قى حديث من الأدب الشعبى الراقى . ويستلهم ألف ليلة والقرآن والإنجيل والمزامير فيخرج منها ألوانا مختلفة ، شرقية الفلسفة والروح ، يلبسها جميعا ثوبا جديدا من فكرة إنسانية جديدة فى إطار القوالب والأساليب الفنية الحديثة .

وهو كمصرى — تستنفذ مصر منه قسطا كبيرا من إنتاجه ، وهنا نجده يستلهم مصر القديمة فى تراثها وفكرتها عن البعث : البعث فى هذا العالم ، وعلى هذه الأرض ، وهو يحاول فى هذا المضمار أن يثير وعيا إلى ناحية مطمورة فى لا شعورنا طواها الزمن طيا . خاصة بعد الفتح

العربي . فان مصر الفرعونية لم تمت بفتح الفرس أو الإسكندر ، أو تحت حكم البطالسة والرومان أو بانتشار المسيحية . هذه الأحداث التي توالى على مصر لم تمح فرعونيتها محو تاما ، فاللغة القبطية التي كان يتكلمها أهلها قبل الفتح العربي - وهى التي كانت بحروف يونانية - إنما هى لغة مصرية قديمة .

وبالفتح العربى جاء حادث خطير أقام فجوة عميقة بين ماضى مصر وحاضرها ومستقبلها ، فجوة بين الحضارة الفرعونية وبين الحضارة العربية الإسلامية . فقد انتشر الدين الإسلامى وانتشرت اللغة العربية ، وطوانا الزمن طيا فى كيان واسع لا يلقى بالا إلى الإحساس الوطنى بقدر ما يعنيه صالح (الدولة العامة) و (الدين العام) و (اللغة العامة) . وهنا فقط اندثرت مصر القديمة الفرعونية . وحلت محلها مصر الإسلامية ! . وأصبحنا لا ننظر إلى الحضارة الفرعونية كمبعث للوحى والإلهام بقدر ما ننظر إلى الحضارة الإسلامية . فتاريخ العرب لا يزال حيا فى ذاكرتنا ، وهو يكون جزءا من تقاليدنا القومية . أما تاريخ الفراعنة فقد دفن ، فهو بالنسبة إلى معظمنا تاريخ ميت . وليراقب أى منا تأملا باطنيا لإحساساته حين يقف أمام مخلفاتنا القديمة وآثارنا . فإنه سيجدها لا تمس أوتارا حساسة فى تفكيرنا ماعدا الإعجاب بالفن للفن ، فأذا ذكرنا أنها من عمل الفراعنة خيل الينا أنهم قوم غرباء عنا ، ما كانوا قط أجدادنا على هذه الارض .

أما الحكيم فإنه يحاول أن (يبعث) هذه الفترة الزاهية ، ويحلها منا المحل الملائم فى إطار الحضارة الشرقية العامة . فإذا كان فى (عصفور من الشرق)

يصور شعور (محسن) الشرقى الذى ذهب إلى الغرب طلباً للعلم ، فانه فى (عودة الروح) يصور شعور المصرى الذى ينقب عن منبع ميراثه الثقافى والروحى فى (رواسب) الآلاف من السنين الكامنة فى ضمير مصر وريفها وأهلها الصادقين ، والذى يعتز بأصالة الشعب المصرى ، ويردد ألفاظه المباهية بعراقة حضارته .

(محسن) فى كلا الحالين يبحث عن الروح - هام بحثاً عنها فى الغرب ، حيث سيطرت على تفكيره فكرة واحدة : روحانية الشرق وعظمته ومواضعها وينابيعها ؛ وفى مصر حاول أن يستوحى (روح) مصر القديمة الكامنة فىنا دون أن ندري . ويخرج من الكتابين إلى وجوب تقديس ماضينا ، دون أن نذهب فى ذلك التقديس إلى الحد الذى يجمانا نوصد أرواحنا دون تلقى كل جديد ينفعنا ، ولو كان ذرة من أشعة .

وفى بعثه لمصر نلاحظ الكلمات الآتية فى (عودة الروح) جاءت على لسان عالم فرنسى للآثار موجهها كلامه إلى مفتش انجليزى للرى فى مصر : « هذا ما يفسر لنا نحن الأوربيين تلك اللحظات من التاريخ التى نرى فيها مصر تطفر طفرة مدهشة فى قليل من الوقت . . . وتأتى بأعمال عجاب فى طريقة عين . كيف تستطيع ذلك إن لم تكن هى تجارب الماضى الراسبة قد صارت فى نفسها مصير الغريزة ، تدفعها الى الصواب وتسعفها فى الأوقات الحرجة وهى لا تدري . لا تظن أن هذه الآلاف من السنين التى هى ماضى مصر قد انطوت كالحلم ، ولم تترك أثراً فى هؤلاء الأحفاد أين إذن

قانون الوراثة الذى يصدق حتى على الجماد ؟ ولئن كانت الأرض والجبال إن
هى إلا وراثة طبقة عن طبقة ، فلماذا لا يكون ذلك فى الشعوب القديمة التى
لم تتحرك من أرضها ، ولم تغير شيئاً من جوها أو طبيعتها ؟ قوة أوربا
الوحيدة هى فى العقل تلك الآلة المحدودة التى يجب أن نملأها نحن
بارادتنا . أما قوة مصر فى القلب الذى لا قاع له . ولهذا كان المصريون القدماء
لا يملكون فى لغتهم القديمة لفظة يفرقون بها بين العقل والقلب إنهم
(المصريين المحدثين) لا يعلمون ما عندهم من كنوز ثقب أن الفاسد من
هذه الأخلاق ليس من مصر ، بل أدخلته عليها أمم أخرى كالبدو أو الأتراك
مثلاً . ومع ذلك فلا يؤثر هذا فى الجوهر الموجود دائماً إن هذا
الشعب المصرى الحالى مازال محتفظاً بتلك الروح .

و الواقع أننا لازلنا نحتفظ بالكثير من مصر القديمة . فالفلاح المصرى
هو الفلاح الفرعونى ، فى طبيعته وملبسه وكدحه وحتى فى أدواته : كما أن
الكثير من عناصر الميثولوجيا المصرية قديمة الأصل . ومصر أقدم من غيرها
على الخلاص من مصائب الزمن ، وما أكثر ما حل بها من مصائب الزمن !
ماضيها التليد السابق على غيره كان فى ضميرها دائماً . فهى السابقة على الجميع
فى ميدان التقدم والحضارة والعمران وطيلة تاريخها بجد عند أهلها قدرة
عجيبة على هضم غزاتها وفرض طابعها عليهم : فتحتها اليونان على يد الاسكندر
المقدونى ، فأصبحت الاسكندرية بعد زمن مركز الحضارة الإغريقية .
وفتحها العرب ، فأصبح الأزهر جامعة العلوم العربية الإسلامية ، يحج إليه

المتفقهون والمستزيدون من شتى الأقطار الإسلامية ، بل من بلاد العرب ذاتها .

لا شك أن عندنا حيوية كامنة فينا تفرض طابعها على غزائنا ، فسرعان ما (يتمصرون) ، ويخرون على أقدامهم ساجدين أمام محراب الفن والفكر . إلا الاستعمار الأوربي الحديث ، فانه لم يتأثر بنا ، لأنه حين جاءنا كانت هذه الحيوية قد ذوت ، فلم تكن عندنا البضاعة التي نرضها . كنا فقراء في سوق الفن والفكر ؛ وفاقد الشيء لا يعطيه . ومع ذلك فهذه الحيوية قد جعلتنا نتصر من حيث لا ندرى فلا الفرنسيون ولا الانجليز استطاعوا أن يفرضوا علينا قيما خاصة ، ولا استطاعوا أن يطووا ماضيينا طيما كما فعلوه في أقطار أخرى .

لقد قاومنا الاستعمارين الفرنسي والانجليزى ونحن نعرف أننا أمام عدو قوى ، فلم يردنا شيء عن المضى في طريقنا ، اللهم الاضعفنا كأفراد أمام المغريات والمنافع الشخصية التي قد تنحرف ببعض القادة عن الطريق السوى . وقد أوضح لنا الاستعمار الغربى جانبنا من تفوقه . ودخول الجسم الغريب علينا هو الذى أعد الدم لحركة المقاومة والانتعاش . فنحن من ناحية أعادنا النظر إلى أيام عز مصر القديمة وصدر الإسلام ، ومن ناحية أخرى قامت عندنا تلك النخبة الصالحة من المفكرين الذين لامسوا أوربا ، واتصلوا بها ثقافياً . وهم أساطين جيلنا وحملة المشاغل للأجيال القادمة ، والموجهون للجيل الحاضر فيما لو أصاح السمع .

إن الشرق قد صحا لاشك في ذلك . ونحن في فجر عهد جديد لاشك
في ذلك . وإن الحضارة الغربية آخذة في التغلغل فينا ، لاشك أيضاً في
ذلك . ولكننا سنفيد منها ، ونفرض عليها طابعنا ، فنخرج للأجيال
حضارة جديدة كما تنبأ توفيق الحكيم .

مشكلة الفكر

نحن الآن حائرون في ميدان الفكر، تطالعنا تيارات مختلفة دون أن نتمكن من دمجها أو تتمكن هي من التغلب على العادات المتأصلة فينا. ويرجع ذلك إلى أن رأينا العم لم يتكون بعد. فكل شيء في مصر يجعله مشوها مضطربا مبطل الاتجاه مشئت الهدف «لأن كل شيء في بلادنا له نسخ متعددة وأثواب مختلفة... وهذا الخلط في الأوضاع والتعليم والترية والإطار الذي يعيش داخله الناس في بلادنا، جعل لهم بالضرورة عقليات مختلفة — كل عقلية تفكر تفكيراً خاصاً... وترى الدنيا من زاوية منفردة. وكان من أثر ذلك أن حبس كل فرد داخل حلقة منفصلة من وضعه الذي نشأ عليه... يرى الدنيا دنياء، ورأيه هو وحده الذي على حق... لا يفهم جاره، ولا يشعر بشعور مواطن آخر... وبتفكك عقلية الأمة الواحدة أو عقلية الرأي العام الموحد إلى عقليات متعددة مختلفة متضاربة، يتم تفكك الشخصية لأمة من الأمم... وإذا تفككت شخصية أمة فمعنى ذلك انحلالها وموتها..» (١)

ووسيلة الحكيم لترية الرأي العام هي توحيد الثقافة الأولى، وتوحيد

المحيط والنظرة إلى الأشياء . ففي الغرب يقوم المنزل والمدرسة والمجتمع بهذه المهمة . أما عندنا فالمنزل لا يقوم بشيء على الإطلاق اللهم الا في محيط ضيق وبين فئه من الناس . فان الفقر الملم بمعظم المصريين ، وانشغال الرجل بكسب عيشه — قسما كبيرا من الوقت ، لا يمكنه من متابعة نشاط أولاده ، بالاضافة إلى جهل الأم في معظم الاحيان — والمدرسة لا تعدو أن تكون مباني تشيد ، وتلاميذ يحشرون فيها حشرا ، ليدخل فيها مدرسون لا تمكنهم ظروفهم في الغالب من تأدية رسالتهم التربوية . والبرامج المدرسية إن هي إلا معلومات توضع في الكتب دون أن يسأل واضعوها أثار تفاعلا في أدمغة التلاميذ أم لا ، بل إن على هؤلاء أن يستظهِروها ليلقوا بها إلى أوراق الإمتحانات ولينسوها من بعد ذلك . لا أمل إذن في قيام المدرسة المصرية بمهمة التنسيق الاجتماعي وتقريب وجهات النظر بين المواطنين من شتى البيئات ، حتى يعاد النظر في البرامج المدرسية على نحو خاص ، فتصبح أقرب إلى تحقيق أهدافنا ، وتفتح المجال واسعا أمام تنسيق التفكير العام ، وحتى يعد المعلمون إعدادا خاصا ، لا إعدادا مبتسرا كما هو الحال في الوقت الحاضر .

أما محيطنا الثقافي فتتقصه تغذية الوعي الفنى العام . فمن اليسير أن تجد « الشعور العام » الموحد ، ولكن من العسير أن تعثر على « الذوق العام » الموحد . ذلك لأن الشعور العام يصدر عن الضمير . والضمير قلما يختلف بين إنسان وإنسان . أما الذوق فيصدر عن المدارك ، وهذه تختلف بين طبيعة وطبيعة ، وبين ثقافة وثقافة ^(١) والوعي

العام المتذوق هو الذى يغرى الكتاب والفنانين بالإخلاد إلى الفن الرفيع دون أن يخشوا عدم الاستجابة بينهم وبين جمهورهم، أو محاولتهم الانزلاق إلى المستويات الدنيا. كما أن الأدب الفنى الراقى هو الذى يساعد بدوره على رفع المستوى العام. ومن المؤسف أن نجد الألوان المختلفة من نشاطنا الثقافى تميل إلى الهبوط نحو المستوى الأدنى: وقد يرجع ذلك إلى أن المشتغلين بالفنون والآداب وشئون الفكر يخشون انقطاع الصلة بين رسالتهم والجمهور العادى. ومع ذلك فالفن الراقى موجود، بل يجب الإكثار منه، وتوجيه الناس إليه، وتبسيط أفكاره لهم؛ حتى يحىء الوقت الذى تبنى عليه نهضة أخرى عندما يقوم المجتمع، وتقوم المدرسة بقسطهما من حيث تربية الوعى العام.

يضاف إلى ذلك كله، وجود تلك المعتقدات التى تخلفت لدينا من عصور الظلام، والتى لا تزال تفعل فعلها فى تفكير العامة وكثير من الخاصة. لا تزال الخرافات ترتفع فى الطبقات الدنيا الكثيفة من الشعب، مما نلاحظه حتى فى الكثيرين ممن أمكنهم تلقى جانب لا بأس به من التعليم التقليدى. ومن المؤسف أن تجد كثيرا من هذه الخرافات قد ألصق بالدين، ونحن نعلم أن الدين فى جوهره براء من كل ما يلصق به من هذا الوهم. وكانت الصعوبة الكبرى فى القضاء على هذه الخرافات، أن ارتباطها فى ذهن العامة بالأفكار الدينية التى لا تقبل جدلا لديهم، قدمكن للمستفيدين من الأوضاع العتيقة أن يشنوا الحملة الناجحة فى معظم الأحيان ضد كل مجدد والواقع

أن الأمر في هذه الناحية يحتاج إلى شجاعة ومرونة معا ، فلا يجوز أن نسمح بترك علاج هذه المسائل للزمن وحده . ولعل بادرة قد ظهرت كان لها وقع حسن في نفوس المثقفين والمتحررين ، حين كتب الأستاذ خالد محمد خالد^(١) — وهو من رجال الدين — منددا بالكهانة والمعتقدات الدينية المتخلفة عن عصور الجهل . على أنه ليس من السهولة أن تقضى على التقاليد المقررة المتخلفة من الماضى المظلم ، لأن بقاء القديم على قدمه رسخته في الأذهان أضفى عليه قدسية غامضة . والشرقيون على العموم إلى عهد قريب أبغض الناس إلى فكرة الحركة في كل ناحية ، وذلك لايمانهم بالقضاء والقدر إيمانا غير رشيد . كما أن مرجع ذلك في رأى الرجعيين والجهلاء والمتجاهلين : أن ما تعرفه واعتدته خير مما لا تعرفه ؛ وخاصة إذا كان آتيا من الغرب الذى يقرن في أدمغتهم الكليّة بالإلحاد والإباحية وفساد الأخلاق .

ويمكن الرجعية ومناصرة القديم لمحض أنه قديم كان أحيانا في بعض أسيان الأزهر الذين يفسرون الدين كما يفهمونه لا كما يجب أن يفهم . والواقع أن الكتب الصفراء الجافة قد حجرت عقولهم ، وضيق أفقهم . كما أن علماء الأزهر في عصورنا الوسطى قد اعتادوا أن يكونوا المتكلمين باسم الشعب ، المتوسطين له لدى حكامه ، ونجد بعضهم اليوم يحاولون أن يسترسلوا في هذه المهمة التى عفى عليها الزمن بعد أن زالت الظروف التى كانت تعطيهم

(١) « من هنا نبدأ » .

مثل هذا الحق . فنحن الآن في مجتمع حديث منظم مفروض فيه أن يمنح كل فرد حق الكلام في شأنه والتعبير عن رأيه . ولكنه التشبث بالقديم ، وفي ثناياه التشبث بالمراکز المكتسبة والحقوق المغرية .

ولا أحد ينكر أن الأزهر قد أدى للعلوم الإسلامية خدمة كبرى . فانه ساعد على وحدة الفكر في عصورنا الوسطى ، وقام بنصيبه مشكورا جنبا إلى جنب مع جامعات بغداد والأندلس ومدارس الشام . حفظ الأزهر التراث القديم ، ولكنه من الناحية الأخرى لم يساير الزمن ، فكبل الفكر بمعايير خاصة ضيقة لا يصح له أن يعدوها . وفي فترات الانحطاط العام التي ألمت بآطارنا الاجتماعي والفكري ، نجد العلوم الأزهرية تقتصر على الشكل ، وتهتم بظاهر العلم دون أن يعنيتها الجوهر ، وتخال الطالب مادة صماء يمكن أن تنقش فيها سطور تلك الكتب الصفراء برمتها دون اهتمام من قريب أو بعيد بتغذية وجدانه . واقتصر الاجتهاد من جانب علماء الأزهر على التعليق والتحشية ، أو روحها والعنونة الطويلة التي تسم دون إبراز للقضايا التي تهتم الناس في معاشهم ومعادهم . ولم يخرج لنا الأزهر في الأحقاب الأخيرة عالما فخلا يمكن أن يداني بعض علماء العصر الذهبي للحضارة الإسلامية من المتكلمين والنحاة والفقهاء . وقد قام محمد عبده بمجهود كبير لرحلة الأدمغة الأزهرية عن جمودها ، ولكنه لم ينجح النجاح المرموق ، فقد تصدى له الأشياخ من كل جانب .

حقا لقد بنيت المباني الأزهرية الشاهقة ، وحقا لقد انتهت أيام الحصر

والجراية والأروقة، وحقا لقد سمح لبعض طلبة الأزهر بارتداء الملابس
الإفريقية، وأقحمت عليهم العلوم الحديثة التي يستظفرونها كما يستظفرون
ألفية ابن مالك، إلا أن السطحية هي السطحية، وإلا أن الاجتهاد قاصر في
ميادين اللفظ والمغالطة.

وقد شهد الأحرار والمجددون محنة فكرية أثارها بعض علماء الأزهر،
بشأن الدكتور طه حسين، ذلك الرائد الأول في إرساء الطريقة
العلمية الحديثة في النقد الأدبي. عندما نشر كتابه «في الشعر الجاهلي»
فأحدث ثورة من الجدل لعبت الأهواء السياسية دوراً فيها. اتهم طه
حسين بالشك في الدين الإسلامي، وأنكر ما اتهم به، فكتب إلى مدير
الجامعة يشهد أنه مسلم يؤمن بالله وما لائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر^(١).
ومع ذلك فقد ظلت الصحف الحزبية والرجعية تهاجمه هجوماً عنيفاً، كاد
يعصف بالجامعة المصرية في بدء عهدها. صراع عنيف، يكاد يشبه من بعض
جوانبه ذلك الذي حملت لواءه البابوية في العصور الوسطى لتشكل بطلائع
النهضة وتتعبهم حتى تخنق أنفاسهم أو تقضى على أفكارهم. ولكن المظهر
في ناحيته يختلف في تفاصيله. فالبابوية كانت في العصور الوسطى ذات
ظلال رهيبية، وذات تنظيم محكم. لها سيطرة كبرى على الأمراء والملوك،
ولها نفوذ روحي ضخم في عقول الناس. فكانت تستطيع أن تقضى على
أعدائها بسهولة. أما كتل الرجعيين في الشرق، فلا تملك إلا الالتجاء إلى

(١) سامي الكيالي: مع طه حسين.

الرأى العام ، وهو قد أخذ يخذلها فى أزمة الفكر الشرقى الراهن ، فان الرأى العام الشرقى قد جنح إلى تكوين آرائه بنفسه خصوصا وأن الدين الإسلامى لم تحتكره يوماً طائفة كما احتكرت البابوية المسيحية فى العصور الوسطى .

وكانت معركة طه حسين بداية عصر جديد ، أو مرحلة فى دورة تطورنا الحديث . ويكفى أنها ألقت خميرة الشك فى النفوس — الشك ليس حبا فيه ، ولكنه الشك الديكارتى الذى يهدم القديم ليصل إلى الحقائق عن طريق العقل وحده .

ولكن مجهود طه حسين لم يكن كافيا وحده ، فهو لم يتناول سوى زاوية واحدة من زوايا المجتمع — أعنى الأدب وما يتصل به من نقد على وبقية الألوان الأخرى التى لم تمسها يد ، فكان لابد من تعاون طليعة النور جنباً إلى جنب فى طريق الحرية والتطور . ونزل الحكيم إلى الميدان فكان رائداً آخر . استغل الصحافة ومؤلفاته ليمس النواحي الراسخة فى مجتمعنا كله ، وليلبس الأدب ثوب الفن ، وليهاجم أوكارا للرجعية والسطحية فى عقرب دارها ، ثم ليدخل الطريقة الفنية فى الفكر كله . ويكفى أن نسجل له فى تاريخ فكرنا الحديث أنه أول من وضع السيرة النبوية فى قالب الحوار كلون فنى ، ووضع كل شيء تحت مصباح الطريقة الذهنية الفنية .

شن الحكيم حملة واسعة المدى لأصلاح النظام البرلمانى وحملة لإخراج المرأة من (حريمها) المعنوى ، وحمل على تعدد الزى الذى هو فى الواقع الناحية الظاهرة لتشتت تكويننا الاجتماعى . حمل على الطربوش ودعا إلى

لبس القلنسوة أو البيريه — التي لبسها الجيش بعد ذلك — فكان من العجيب أن
يتهم في هذا المقام بأنه متعد على الوطنية ، فهاجموه قرنوا الطربوش
بالقومية ، مع أنه أصلاً لباس تركي نسائي لا يبق حراً ولا برداً ولونه وزره يوحيان
بالزينة أو الهزل لا بالجد أو العمل . وقد علق على ذلك بقوله : « الشعوب
الحرّة القوية هي في الغالب أوسع الشعوب صدراً وعقلاً . إن مسألة الزى
الأوربي مثلاً أو لباس الرأس لم تصادف في اليابان أى صعوبة أو إشكال
... وعلى الرغم من التقاليد اليابانية القديمة ، لم نسمع يابانياً ذكر كلمة
« القومية » أو « الوطنية » ، وهو يرتدى الزى الأوربي ، لأنه ما خطر قط
بباله وهو يلبس القبعة أنه سيخلع قوميته . أما الشعوب الضعيفة فتتوهم دائماً
أن حريتها أو قوميتها أو عبقريتها ستخلع منها وتذهب عنها بلفظ أو بكلمة
أو رداء . فهي تنفعل وترتعد وترتاب لمجرد المظاهر والألفاظ والكلمات ..
والعلاج هو حرية الكلام حتى يألف الناس الألفاظ ولا يرتاعوا من
الكلمات . وحرية الفكر والعمل والتصرفات ... حتى يعتاد كل فرد احترام
رأى الآخر وعمله وتصرفه ، دون أن يكون مضطراً إلى اتباعه »^(١)

هذه الحرية عنده هي البلسم الشافي لكل الأدواء الاجتماعية والفكرية
فهي وسيلة التقدم في الجماعات وهي وسيلة خلق الذاتية في الأشخاص « فإذا
أعطيت شعبك كل شيء وسلبته حريته فانك لم تعطه شيئاً »^(٢)

ومنذ الأزل لا تزال تطالعنا قصة الكفاح بين الحرية والنظام سواء
أكان ذلك في التربية أم في السياسة أم الفكر . قصة هذا الكفاح

هي تلخيص للصراع بين الفرد والمجتمع ، فطوراً يتغلب الفرد وطوراً يتسلط المجتمع . والصراع الفكري والسياسي الحديث إنما هو صراع بين الحرية والنظام . فالمجتمع الديمقراطي يناصر الفرد ، والمجتمع الفاشي أو الشيوعي يناصر المجتمع ، وينادي بأن الفرد إن هو إلا شظية من شظايا المجتمع لا ينبغي أن يكون لها كيان إلا من حيث تلاشيها وفنائها في (المجموع المطلق) . على أن التطرف في الحرية بمعناها الفردي يؤدي إلى الفوضى ، كما أن التطرف في النظام حتى يصل إلى حد الكبت فيه مضيعة لشخصية الفرد . وقد سجل لنا التاريخ أدواراً انتصرت فيها الحرية فوصلت إلى الإباحية ، كما سجل أيضاً أدواراً أخرى انتصر فيها النظام فشل حركة الفكر . ولعل التوفيق بين الطرفين في مصلحة الجانبين — أي الحرية في إطار النظام الاجتماعي . ولعل ذلك هو ما فهمته الأمم الناهضة ، ولعله السبب فيما وصلت إليه من تقدم بتشجيعها ما في المجتمع من كفايات فردية متنوعة .

ويعود الحكميم فيطبق هذه الحرية التي آمن بها على الأدب والفن . وهو يرجع تأخر الأدب العربي إلى سجن أدباء العربية في سلاسل الحلية اللفظية والمهارة اللغوية مما كاد يقتل النثر العربي نفسه « فاللغة لدينا هي شبح الأدباء الخيف . نحن عبيد ذلك الميراث من الألفاظ والعبارات والتراكيب التي وجدناها داخل صناديق المعاجم العتيقة وكتب اللغة القديمة . . . إننا ننظر فيها بحرص خشية أن ينفذ إليها نور هذا العصر أو نسيم هذا الزمن فيعبت بنسيج عنكبوتها المقدس ! يا لشبح القدماء المروع ! يا لشبح الأموات الذي يرهب كل من يعتبر اللغة كائناً حياً

اللغة

يتغير ويتطور ، وكل من يحاول التصرف فيها طبقاً لمطالب العصر وروح الزمن^(١) ويخلص من ذلك إلى الثورة على الشكل اللفظي في الأدب، والمناداة بالانطلاق. فالكاتب التافه هو الذي ليست لديه أفكار فيلجأ إلى الحلية اللفظية أما الكاتب ذو الأفكار فيلجأ بها مرسله لتتخذ طريقها إلى عقل القارئ. ومضى كان الأدب ذا أفكار ، فانه بالتالي ذو رسالة .

ومهمة الكاتب لديه ليست مجرد إقناع القارئ بأي وسيلة ، بل في حمله على التفكير معه . ومن هنا يكون الأدب طريقة إلى إيقاظ الرأي. فالكاتب لا يريح القارئ أو يلهيه ، إنما على القارئ أن يطوى الكتاب فتبدأ متاعبه . فالكاتب مفتاح للذهن يعين الناس على كشف الحقائق والمعارف بأنفسهم لا أنفسهم ، ومهمته تربية الرأي ، « وكل كاتب لا يثير في الناس رأياً أو فكراً أو مغزى يدفعهم إلى التطور أو النهوض أو السمو على أنفسهم ، ولا يحرك فيهم غير المشاعر السطحية العابثة ، ولا يقر فيهم غير الاطمئنان الرخيص ، ولا يوحى إليهم إلا بالإحساس المبتذل . ولا يمنحهم غير الراحة الفارغة ، ولا يغمرهم إلا في التسلية الساقطة ، والملذات السخيفة ، التي لا تكون فيهم شخصية ولا تثقف فيهم ذهنًا ، ولا تربي فيهم رأياً ، لهو كاتب يقضى على نمو الشعب وتطور المجتمع ، إن واجب الكاتب يحتم عليه أن يحدث أثراً سامياً الهدف في الناس ، وخير أثر يمكن أن يحدثه عمل في الناس ، هو أن يجعلهم يفكرون تفكيراً حراً ، وأن يدفعهم إلى تكوين رأي مستقل وحكم ذاتي »^(٢)

ورسالة الأدب لديه في جوهرها هي نفس رسالة الفن والفكر، لا تهدف إلى نصره الروح على المادة أو نصره المادة على الروح بمقدار ما تهدف إلى إقرار التوازن بينهما بانماء هذه الحيوية في كل منهما^(١). فاغفال أى حاسة من حواس الإنسان الحى هو إقفال باب من أبواب المعرفة، فالأدب أو الفن أو الفكر لا يقوم أى واحد منهما على العقل وحده، وإنما يعتمد على الروح وعلى الحس وعلى الوجدان وعلى التأمل. وكلما أثر لون من هذه الألوان في قدر أكبر من الحواس والمشاعر، كلما كان ذلك أغنى في التجربة الفنية. كذلك ليس الابتكار، في أى لون من هذه الألوان الثلاثة، أن تطرق موضوعا لم تسبق إليه، ولا أن تعثر على فكرة لم تخطر على بال غيرك. إنما الابتكار فيها هو أن تتناول الفكرة التى قد تكون مألوفة للناس، فتسكب فيها من أدبك، وفنك ما يجعلها تنقلب خلقاً جديداً، أو تعالج الموضوع القديم المطروق. فإذا هو يضىء بين يديك بروح من عندك. الابتكار عند الحكيم هو أن تحقق ذاتيتك، هو أن تكون أنت... هو أن تحقق نفسك، هو أن تسمعنا صوتك أنت، ونبرتك أنت... فالفنان أو الأديب ذو الشخصية يبتكر حتى وهو يريد أن يقلد. والفنان الذى لم يستقل بعد بشخصيته يقلد وهو يريد أن يبتكر^(٢).

وقد ابتكر هو أئما ابتكار، فنقب في الآثار القديمة، وعثر على موضوعات بعضها مطروق سواء في الشرق أو في الغرب، ولكنه أعاد

(١) انظر زهرة العمر (٢) فن الأدب

صياغتها بعد أن نفت فيها من روحه هو . كم سمعنا عن سليمان الحكيم
وشهر زاد وأهل الكهف وكم سمع أهل الغرب عن بيجاليون وأوديب ،
وكم كتب الكتاب في الشرق والغرب عن محمد صاحب الرسالة الإسلامية ،
وكم طالعنا أشعب في دنيا الطرائف والشرافة ، ولكنك عندما تقرأ
هذه الموضوعات بعد أن أعاد الحكيم صياغتها تحس أنك أمام خلق جديد
ليس في موضوعه ، ولكن في طريقة صياغته ، وألوان التفكير التي
تطالعك حين تقفل هذه الآثار الأدبية التي تحملك على التأمل فتبدأ متاعبك .

ثم يتساءل من بعد ذلك : هل للأدب أن يخدم أغراضاً أخلاقية
 واجتماعية ، أو يقتصر على المتعة الفنية وحدها ؟

بالطبع لكل من شق السؤال مناصرون . فطائفة تقول إنه ينبغي
للفن أن يكون أخلاقياً واجتماعياً . وطائفة أخرى تقول بتحرر الفن
حتى من الاخلاق ، لأن الجمال ينبع من الإتقان وأن الإجادة في تصوير
الدمامة والرذيلة لا تقل فضلاً عن الإجادة في تصوير الحسن والفضيلة .

* والحكيم ينتصر للطائفة الثانية نظر ألا أنه شديد التمسك بحرية الفن شديد الإدراك
لقدسية هذه الحرية . « فلا أتصور فناً لا يصور الرذيلة كما يصور الفضيلة ،
ولا يبرز القبح كما يبرز الحسن . . . وأن الدين أيضاً في تنزيله يصور لنا
رجس المشركين وإثم الكافرين وقبح الأشرار والمفسدين ، كما يبرز
النا فضل المؤمنين وإحسان المحسنين . . . ولكن المقصود ليس حرية

التصوير فهذه مكفولة في الفن ملحوظة في الدين . . . إنما المقصود هو ذلك الإحساس الأخير الذى ينقله الفن والدين في النفوس .» (١)

وهذه النزعة الفنية في الأدب والفكر هى التى تجعله يغلب انطلاق الفنان والأديب على كل عامل آخر، وإن تعددت نواحي نشاطه. فالناحية الفنية هذه هى التى تجعل الأدب باقيا لا فى الماضى وحده، ولا فى الحاضر، بل فى الغد أيضا وبعد آلاف السنين مادام الإنسان إنسانا. ومادام رقيه الذهنى بخير لم يصبه نكاس. فالإنسان الأعلى هو الذى يصون «الجمال الفنى» عن الاستغلال الأرضى فى أى صورة من صوره، ويحتفظ به لمتعته الذهنية وثقافته الروحية. . إن الإنسان الأعلى ليس ذلك الذى يضع كل شئ فى فمه. ولكن ذلك الذى يشعر بحاجته إلى متع معنوية وأغذية روحية وأطعمة ذهنية لا علاقة لها من قريب أو بعيد بضرورات حياته المادية أو الجثمانية. هذا هو الفرق الوحيد بين الإنسان والحيوان. كل فضل الإنسان على غيره من المخلوقات أنه يرتفع إلى الغاية بأشياء معنوية لا تتصل مباشرة بطعامه وشرابه ومقومات حياته المادية. وهذه الأشياء سماها فيما سماها: الفن والأدب. وحرص على أن تبقى قدر المستطاع بعيدة عن تفاهاته الأرضية لتذكره من حين إلى حين أنه ليس حيوانا. وهنا عظمة الفن والأدب» (٢)

ومع إيمانه بهذه النزعة فأننا نجد ما لا تحجب النزعات الأخرى عنده وعلى رأسها النزعة للكتابة القومية والاجتماعية. نجد ذلك واضحا فى (عودة

الروح) و(يوميات نائب في الأرياف) وفي (شجرة الحكم) و(مسرح المجتمع). هذه القطع الفنية في وضعها هي في نفس الوقت جزء منتزع من جسم المجتمع الحي، تصوره أصدق تمثيل، وتغمز بين ناحية وأخرى بأراء اجتماعية أخلاقية، وتخلص في مخيلة القارئ إلى أهداف إصلاحية واضحة. خذ مثلاً (مسرح المجتمع) تجد أنه قد استلهمها من اتجاهات المجتمع المصري بعد الحرب الأخيرة حين اتجه أكثر الناس إلى نشاطهم الداخلي في مضمار التقدم الشخصي أو المنافسة العامة، فأصبح للمال وسلطانه والسعي إلى طرائق جمعه وتدعيمه الأهمية الكبرى. فمن رجال شركات وأعمال وأثرياء حرب إلى تقلبات سياسية... ومقتضيات الحياة العصرية مما له أثره في تصرفات الناس فنجم عن كل ذلك أنماط من الأخلاق تسير رغبة الطموح وتتابع سرعة الوصول. كما أن المرأة أصبحت لا تقنع بالسفور بل سعت إلى أن يكون لها مكان بارز في السياسة والحياة العامة وأن تحصل على قدر أوسع من الحرية. كل ذلك تجده في هذه المسرحيات الضخمة التي يؤكد هو أنه ما من قصة منها خلت من مشهد على الأقل انتزع بالفعل من واقع الحياة بمن فيها من كثرة تسابير التيسار وترغب في الوصول، وقلة قليلة تصمد وتمسك بالمثل العليا مهما كان من أمرها ونتائجها.

ولكنه يعود فيؤكد مع ذلك أنه لا يتوخى الإصلاح الاجتماعي بمقدار ما يتوخى الخلق الفني في المحل الأول، وذلك لإيمانه القوي بحرية الفن. فالأدباء في رأيه ليسوا مصلحين اجتماعيين، بل هم مصلحو المصلحين، وإن

كان لهذه القاعدة استثناء، فقد جمع بعض الأدباء بين دولتي الحكم والقلم، وحاولوا من ثم أن يخرجوا أفكارهم الإصلاحية إلى حيز العمل، وهم عنده إنما يفعلون ذلك باعتبارهم شخصيات عظيمة مفكرة من واجبها أن تبدى آراءها في المسائل الكبرى، لا باعتبارهم فنانيين يسخرون قلمهم في ميادين الشؤون اليومية. «نحن» (الشرقيين) تبهر عيوننا كلمة (مصلح) بقدر ما نستهيئ بكلمة (فنان).... كلا! لا ينبغي أن نملأ على الفن انجاسا بعينه. ولا يجوز لنا أن نوصيه بارتداء لباس الحكمة الرزينة أو رداء الإصلاح الوقور.... إلا أن يشاء هو ويرضى.... لا أننا إذا أرغمناه سخر منا وجعل من أردية رزانتنا ووقارنا أثواب مساخرة، وقلب بسحره أثواب الهزل خلودا تنحني أمامه الجباه على الرغم منها.... إن الفنان ليس مصلحا ولكنه صانع المصلح. كل أولئك المصلحين من ملوك وزعماء وساسة ما كونهم وهياهم لرسالات الإصلاح غير أدب الأدباء وشعر الشعراء وفن الفنانين. إن الفنان هو مصلح المصلح ولا شيء غير ذلك. أما أن ينزل إلى الميدان يناقش ويدافع ويهاجم وينافح. فهذا لم نره حتى الآن في فن استحق البقاء في أي أمة من الأمم أو حضارة من الحضارات. (١)

وفي ثنايا ذلك كله نجد يعز وتأخر حركة الإصلاح الاجتماعي في مصر حتى اليوم إلى تقصير الكتاب والأدباء، فإن الأدب في رأيه لم يكن عندها حتى وقت قريب سوى حلية عاطلة في معاصم الأدباء الذين كانوا يعيشون لا فقط على

هامش المجتمع بل على هامش حياة الآخرين من أصحاب الجاه والثراء. فلم يكن الأدب في مصر أداة تسجيل وتوجيه لشئون المجتمع، ولم تكن أقلام الكتاب أبواقا توقظ النائمين. ولكنها كانت معارف ينعس على أنغامها المترفون.. أما هو نفسه فقد كان في طليعة من تصدوا للكتابة الاجتماعية، فلم يترك شيئا باليسا من مجتمعنا إلا سيط عليه طريقته الفنية في وضوح وصرامة^(١) وإنه في هذا المجال يكاد يشبه «إبسن» في دورة من دورات التاريخ الأوربي. فهو يندد بأصنامنا السياسية والأخلاقية تنديدا هائلا في أسلوب ساخر يقرؤه الجميع. ولا يدع سوءا لنا إلا كشفها بقلبه لكي تبدو عاريه أمام الأسماع والأبصار، فهو هنا يخاطب العاطفة والعقل، ثم يأخذك من حيث لا تدري إلى برامج يمهد لها مستوحيا مثله الأعلى دون اكتراث برأى أحد.

نجدته قبل كل شيء يدعو إلى التحرر من التقاليد البالية في كل ما يمس كيانتنا الاجتماعية، ويحارب العزلة الذهنية ويدعو الى الاندماج في المجتمع العالمي. ونجدته كذلك يحدد المسؤولية في كل ما وصلنا إليه، ويحملها لكل من الرؤساء في المحل الأول ثم للشعب ذاته الذي يطالب بحقوقه، ويؤكد أن في الإمكان صنع الأعاجيب لو استطعنا أن نعيد إلى الخاصة حسن ظنهم بالأخلاق وصدق تقديرهم للمثل العليا.

(١) لا تناقض بين مناداته بالفن الحر وبين التزامه هو في مؤلفاته بالإصلاح. لأن جوهر فكرته هو: ان الفن لا يلتزم إلا بأرادته ورضاه، لا بأرادة مفروضة من خارجه.

في المجتمع

أتى إلى مصر بعد رجوعه من أوروبا فهاله أمرها . ولو لم يذهب إلى أوروبا لكان قد سار في الطريق المألوف ، وتكيف له وعاش بنظرة الآخرين . ولكنه أتى إلى بلاده مثلما أتى رفاعة الطهطاوى من قبل : طفت الكأس عند كليهما عن طريق المقارنة والتسجيل والنظرة الجديدة . ولا بد للكأس متى امتلأت أن تفيض ، وإذا فاضت فلا توجد قوة تحد من تدفقها .

ذهب إلى أوروبا بعد أن حصل على ليسانس الحقوق وسجل اسمه في جدول المحامين ، وعاش في باريس فنانا ، ورجع إلى مصر فيلسوفا ينظر إلى مجتمعا مصرى نظرة تجديدية فيرسم له المثل الأعلى في صراحة ووضوح . وقد تكون دعوته شديدة الوقع على طائفة المحافظين والمتزمطين ، وقد تكون مهددة لطائفة المنتفعين من القديم ، ولكنها ستسير قدما . فقد ألقت البذرة ، ولا يهم ما إذا كانت الغرس سيونع في أيامنا أو إذا كنا سنلتقط منه الثمار . إنما المهم أن التيار الجديد أصبح أمرا واقعا بالفعل ، وهنا تصدى الحكيم في أكثر من موضع لتوجيه الجيل الجديد في كل مرة لأنه مؤمن بإيماننا كبيرا بتزاياد الأجيال .

وغلطة الكثيرين منا أنهم يحاولون سبق الزمن ، فيودون أن تنصلح أحوالنا في فترة وجيزة ، دون أن يتركوا التاريخ يسير في مجراه الطبيعي مهما

يكن الزمن الذى تستغرقه دورة التطور فى طريقها الصحيح . وإنما المهم فى مشكلتنا الاجتماعية أن نكون واقعيين ، فنحدد أمراضنا أولاً ثم نعمل على إصلاحها بتؤدة طبقاً لأفكار واضحة الهدف . فقد جربنا كثيراً مصائب الارتجال والدعايات الفارغة التى لم تتقدم بنا اجتماعياً فى مجال العمل .

ونظرة متعمقة إلى المجتمع المصرى تجده مغموراً إلى حد كبير فى انحلال الماضى ، والتماسك فيه معدوم إلى أبعد الحدود . ينقسم مجتمعنا إلى شقين : سكان الريف وسكان المدن .

أما سكان الريف فهم غالبية الشعب ، ومع ذلك فهم يعيشون على هامش المجتمع ولا يساهمون بنصيب ملحوظ فى نشاطه . والسبب فى ذلك هو الفقر الملم الذى يحيط بهم فى ظل الركون إلى أساليب أجدادهم فى تحصيل العيش : أى الزراعة بأدواتها البدائية . والزراعة لا يمكن أن تفى وحدها بمطالب مجتمعنا الحديث الذى تضخم عدد سكانه ، وأخذت تتغلغل فيه الطرق الحديثة فى الاستغلال الزراعى وخاصة فى الضياع الواسعة . ثم إن الملكية — كما قرر معظم الاقتصاديين — موزعة توزيعاً غير متكافئ ، إذ تنفرد بها نسبة ضئيلة من عدد السكان . ومن الفقر يتطرق الجهل ، والمرض ، وهما الحليفان اللذان يعينانه على الفتك بمجتمعنا وإبقاء جزء كبير من أبنائه معطلين عن المساهمة فى أوجه نشاطه .

وأما سكان المدن فهم الأقلية ، وهم الذين يوجهون مصائر البلاد لمصلحتهم وحدهم فى أغلب الأحيان ، وخاصة أصحاب النفوذ من رجال

المدن الكبرى وما فيها من حركة تجارية وصناعية . ومع ذلك
فالمدينة المصرية لم تنشط إلا في عهد حديث نسبيا ، وإن تكن في نشاطها
متروكة لهمة الأفراد لا لتوجيه الحكومات . والنشاط الذي أخذ يدب
في المدن يكاد يشبه ذلك النشاط الأوربي الذي تلا حركة الانقلاب الصناعي ،
فأخذت مدنا الكبرى تمتص عدداً من سكان الريف الذين ينضمون فيها
إلى زمرة العمال في المصانع . على أن ازدياد عدد العمال ، وتهاون
أصحاب العمل في استيحاء روح العدالة الاجتماعية في معاملتهم قد أدى إلى
قيام حركة عمالية نشيطة ولو أنها لم تزل بعيدة عن التأثير في الحياة العامة ،
لضعف وعيها ولحدثة عهد المجتمع بالصناعة ، والمشكلات الصناعية
والعمالية .

وإلى جانب ضعف التماسك بين المدن والريف ، نجد ضعف تماسك
من نوع آخر : بين المرأة والرجل . فالمرأة لا تزال تعيش على هامش الرجل
في حياتنا العامة ، ولم تتمكن إلا في نطاق محدود من الاشتراك في نشاطنا
الاجتماعي العام . وإلى جهل الأم يمكن أن نرجع ضعف أجيالنا
الراهنه ، فالأم — على حد قول حافظ — مدرسة إن أعددتها
أعددت الشعب نفسه . ^{شعب طيب الأعراق}

ويرجع الحكيم عدم تماسكنا الاجتماعي إلى طبيعة نظام الإقطاع الذي
فرض على الشرق عامة ومصر خاصة إبان حكم المماليك ثم في ظل الدولة
العثمانية . فالإقطاعيون في هاتين الفترتين أجنب عن البلاد ، ينظرون إليها

على أنها البقرة الحلوب التي تدر عليهم الثراء ولو دفعته لهم من ذات كيانها .
ونسأؤهم جزء من المتاع ، ليست لهم رسالة اجتماعية ، بل كل مهمتهم جلب
المسرة والمتعة لأزواجهن وسادتهن ، مع تحقيق سنة الطبيعة الخاصة باستمرار
النوع . هذا السبب المزدوج عنده هو أصل كل أدوائنا الاجتماعية .

حقا لقد زال الإقطاع كما كان عليه في عصورنا الوسطى ، ولكن حلت
محله قيم أخرى لا تختلف في طابعها العام عن منطق السادة . وحقا لقد استطاع
قاسم أمين أن يزيح الحجاب عن المرأة المصرية ، وأن يخرج بها من عالم
الحريم والرقيق . ولكنها لا تزال في حاجة إلى داعية جديد ينفذ عنها
حجابها الممنوع ، فيدفعها دفعا إلى ميدان العمل المنتج بما يوافق طبيعتها
وإمكاناتها ، فينقلها من عالم الأزياء والأصباغ والتقليد السطحي إلى مهمتها
الخالدة : تكوين النشء الجديد ، والعناية بمنزلها ، والاشتغال بشؤون
الإصلاح الاجتماعي .

ويقارن الحكيم تطور الإقطاع العربي بتطور الإقطاع الشرقي . تقدم الريف
الأوربي وتأخر الريف عندنا ، بأن الإقطاعي الأوربي كان يعيش في إقطاعه ، ويحنو
على فلاحيه باعتبارهم رجاله ومواطنيه ، وهو كبيرهم ، يرفع مستواهم
يحسن أحوالهم الاقتصادية . ويخرج معهم إلى الحرب قائدا لهم في تلك
المعارك التي تشعر الجميع بوجوب تماسكهم لدفع العدو المشترك ، أو لتحقيق
كسب مشترك . وزوجة الإقطاعي الغربي كانت عنصرا من عناصر ذلك
التماسك الاجتماعي ، فهي الساهرة على الفقراء ، الحانية عليهم ، وهي المخففة

لألام المرضى ، والمثل الأعلى لنساء الريف اللاتي يقبلنهن في العادات
الصالحة التي اكتسبتها بحكم ثقافتها ومركزها وتربيتها . « إنها هي
باستقرارها في الريف واتصالها بزوجات كبار القرويين ، عملت على إدخال
المثل الصالح في النظافة والذوق إلى جميع البيوت . لقد كانت هي المرجع
الأعلى لشئون الصحة والبيت . إذا حدث مرض جاءتها النساء يسألنها الدواء .
وإذا وقع حدث جئها يسألنها النصيح . إنها المدبرة لشئون البيت والصحة
والنظافة والذوق للقرية والمقاطعة كما أن زوجها الشريف هو المدير لشئون الأمن
والقضاء . إنها هي الحاكمة المطلقة لشئون الحياة الاجتماعية في دائرتها ؛ كما أن
زوجها هو الحاكم المطلق لشئون الحرب والكسب . هي التي تنظم الحفلات وتعد
المجتمعات ، وتنشر النماذج الصالحة لكل ما هو جميل ... من ملبس وتحف وأوضاع
ومراسيم تحتذيها ويقلدها زوجات الأثرياء من القرويين أو المقربات من
القرويات وهن مشدوهات الأفواه ، مفتوحات العيون . ويذهبن فيتحدثن بهذا
في القرى ويدخلن هذا على أنفسهن ويوتهن .. إلى أن ذهب نظام الإقطاع ومضى
زمن الأشراف ، وجاء عهد الديمقراطية . فلم يتغير الوضع . فقد حل في
الريف محل زوجة الشريف زوجة المالك الكبير أو زوجة القروي الغني ،
وقد ورثت كل صفات السيدة الشريفة فوجدت من واجبها أن تحتذيها ،
وتقوم فيمن دونها من فلاحات القرية مقام المرشد المعين . أما في المدن
فقد حلت كذلك زوجة التاجر الموسر والصانع والرأسمالي محل النبيلة
وورثت واجباتها ومهامها في المجتمع ، فأصبحت هي التي تزور الأحياء

الفقيرة: تواسى المرضى وتمدهم بالأدوية والتقود. وتحمل اللعب والحلوى.
للأطفال. لم يأت عصر في أوربا تخأت فيه المرأة عن واجباتها باعتبارها
سيدة لأنها تعلم أن كلمة سيدة لم تطلق جزافا. إنما هى وظيفة فى المجتمع لها
عمل يستغرق وقتا وجهدا. ولها مظهر سيادة وقيادة لمن يحتاج إلى المعونة
من أتباعها فى الريف أو جيرانها فى المدن... هنالك تماسك بين الدرجات.
هناك نموذج يتبع ومثل يعطى من الطبقة العليا للطبقة السفلى. (١)

أما الإقطاعيون فى مصر فانهم « ما كانوا يعتبرون الفلاح رجلاهم بالمعنى
الأوروبى للكلمة ، ولكنهم كانوا يعدونه عبدهم بالمعنى الشرقى للكلمة .
بل أقل من عبدهم ، فقد كان للكلب والفرس عندهم من الحرمة والكرامة
والحقوق ما ليس للفلاح . هذا الفلاح الذى يتكلم لغة غير لغتهم ، ونبت
فى أرض لم تكن أرضهم ... ما كان يسمح له بشرف الجندي ولا الفروسيه
ولا بشرف المصاحبة فى حفل أو اجتماع ... »

وزوجة الإقطاعى تشاركه شعوره هذا بالنسبة للفلاح ، فهى جارية قد
انزعت من بلادها لتباع فى الأسواق بالثمن الذى يوحى به جمالها أو دلالها
ومن هنا كان إحتقارها للفلاح صاحب البلاد، ولزوجه وأسرته. وبالإضافة
إلى ذلك فإن كيان العبودية الذى عاشت فيه ما كان يسمح لها بالإلتفات إلى
رسالات إصلاحية أو قيم اجتماعية .

وبذلك انشطرت مصر شطرين بعيدين ، وانقسمت إلى طبقتين لا تمتد

(١) حمار الحكيم من ص ٩٦ إلى ص ١٠٢

إحداهما إلى الأخرى يداً . وبدا السلم الاجتماعي على ذلك الشكل العجيب : طائفة في أعلاه ، وطائفة في أسفله ، ثم لا شيء بين ذلك غير فراغ . فقد تحطم وزال السلم ما بين الأعلى والأسفل من الدرجات ^(١) .

وانقضى عهد الإقطاع في مصر ، وجاءت العصور الحديثة ، فلم يتغير هذا الوضع ، فالمالك الغني أو الفلاح الموسر الذي حل في الأرض محل السيد العثماني ، قد ورثه كذلك في طباعه وقلده في ميوله وعاداته . فزوج هذا الفلاح المالك بالجوارى البيض . وجعلهن في الحريم . وازدرى أحيانا هو أيضاً أبناء جلدته من الفلاحين . ونسيت زوجته في إبان غمرة الاتجاهات الجديدة أن لها رسالة إجتماعية هي التي جعلت من المرأة الغربية سيدة بكل ما تعنيه الكلمة . خرجت المرأة المصرية الحديثة إلى المجتمع ، وشاركت الرجل في كثير من الأعمال ، وهي تنادي اليوم بدخول البرلمان ، وكأن هذا هو الذي قد بقي من المسائل الواجب علينا حلها ! « إنها في شبه حريم معنوى لا تكاد تحسه ، لأن مداركها المعنوية ما زالت قاصرة ... وأنا مؤمن كل الإيمان بأن بلادنا كلها تنقلب إنقلاباً عظيماً عجيباً لو تمت هذه المرحلة الثانية من مراحل نهضة المرأة المصرية والشرقية . خروجها من الحريم « الروحي » ونبذها ما علق بها من آثار الجوارى ، وبلوغها مرتبة « السيدة » التي تخلق شيئاً وتحمي شيئاً » ^(٢)

هذا هو استكناها لعنتنا الكبرى : روايب الماضي سواء في الريف أو المرأة .

أما الريف فقد رآه أيام كان نائبا بالأرياف، وصوره تصويراً لا يزال حافظاً للواقع، ولا يزال يلبس ثوب الحقيقة حتى يهيء الله المعجزة فيصبح ريفنا قلب المجتمع النابض. وصفه في (يوميات نائب في الأرياف) وفي (عودة الروح) فأدخل تصويره للواقع والحقيقة في الإطار الروائي فجاء الأثر صادقا. قرأت (يوميات نائب في الأرياف) مع أحد أصدقائي من وكلاء النيابة، فقال إن هذه ليست حياة الحكيم في الريف والنيابة، ولكنها حياتي وحياة كل (نائب في الأرياف) وحياة كل فلاح. صور فيها الحاكمين والمحكومين والحياة في ريفنا الحزين الذي ظالمنا كان موضع عناية القادة والزعماء في الكلام لا العمل، يتغنون باسمه في برامج أحزابهم وفي خطبهم المسجوعة. ثم يقفون عند هذا الحد. وقد تمتد يد الإصلاح وثيدة كليله، فتحقق من التقدم في الريف ما يتصل مباشرة بمصالح أولى الأمر ومن إليهم.

وصف لنا الفقر المدقع والمرضى الملم والسكابة الخيمه، والناس وأنعامهم، أو الأنعام وأناسهم — لا فرق!، والقذارة التي ليست بعدها قذارة. كل ذلك بأسلوب ليس فيه طلاء، لأنه لا يحتاج إلى مجهود لفظي في توصيله إلى نفس القارىء. فالصورة نفسها معبرة حساسة بموضوعها العارى الذى لا يدع مجالا للشك. إنه يصور بلا «رتوش» — وإن مال إلى جانب السخرية اللاذعة. وكما أن المصور لا يحتاج إلى رتوش حين تكون الصورة جميلة في الأصل، فإن الحكيم في هذا المجال يبرز القبح إبرازا واضحا لا أثر

التكلف فيه . وهو إذ ينادى — كما ينادى غيره — بعدم إهمال الإصلاح لدولنا
الحكومي والاجتماعي إنما ، يدفعه إلى ذلك شعور مرهف وإحساس قوى ،
ورغبة في تشييد مجتمع راق متماسك ، يساهم في بنائه جميع أبناء البلاد لا فرق
بين ريفي وحضري ، سيدومسود . أى أنه في هذا المجال من كبار دعاة العدالة
الاجتماعية وتكافؤ الفرص ، وهما المبدآن اللذان يخيمان الآن على تفكير
الفلاسفة الديمقراطيين في قرننا العشرين^(١) .

ويلتقى معه في مصر في هذا المضمار زميله العبقري طه حسين الذي
خطا خطوة جريئة حين أقر مجانية التعليم وزاد في ميزانية المدارس وأهاب
بالشعب أن يساعده بالسير بالبلاد نحو مجتمع مثقف . وإن كان يؤخذ على
طه حسين في هذا المجال أنه قد حشر التلاميذ حشرا في المدارس دون
أن يعد لهم المدرس الصالح . ولكنه معذور إذ خاف ألا يطول أمد وزارته
فتقضى يد البيروقراطية على مشروعه .

إذا استطعنا حقيقة أن نصلح الريف ونقضى على الجهل والمرض والفقر
بأساليب عملية كتلك التي حققها طه حسين وكالتى ينادى بها الدكتور أحمد
حسين ، أمكننا في زمن وجيز أن نصبح أمة راقية تفهم واجباتها وتبسط
بجلالديها . ففي ظل الجهل يمكن أن يترعرع الحكم المطلق السافر أو المقنع .
وفي ظله تقوم الحياة النيابية الصورية ، ويكثر اللصوص والمرتشون وإن
تزيوا بزي الباشاوات والساسة والزعماء . وفي ظله تقوى الفواصل

(١) كان لمقاله المشهور الذي نشره عام ١٩٣٨ وطالب فيه بإنشاء وزارة للحياة الاجتماعية ،
أكبر الأثر في إنشاء وزارة الشؤون الاجتماعية عام ١٩٣٩ .

الاجتماعية والحواجز المصطنعة . فهي علل لا يمكن أن تعيش إلا في الظلام ،
فاذا أشرق نور العلم والعرفان اختفت جميعها كما تختفي البوم والخفافيش .
ومن الخطأ الاقتصار على نشر العلم في المدن وخذها إذ لا تقدم لمصر
إطلاقاً إذا ظل أغلب أهلها مشلولين لا يفهمون مجتمعهم ولا يستطيعون أن
يشاركوا في نشاطه .

.....

والشق الكبير الآخر الذي وجد عناية من جانب الحكيم هو المرأة :
تلك التي اختلف الفلاسفة والمفكرون في طبيعتها وطبيعة رسالتها في الحياة .
فان الكثيرين ينادون بأن هنالك اختلافاً جوهرياً بينها وبين الرجل في
العقل والوجدان . فهي عند المسلمين « ناقصة عقل ودين » ، للدرجة التي
دعت إلى مساواة الرجل بامرأتين في الشهادة ، وإلى حصول المرأة في
الميراث على نصف نصيب الرجل . وكانت في العصور الوسطى المسيحية
« حايقة الشيطان » والمحرضة على الخطيئة الأولى حين أخرجت آدم من
نعيم السماوات إلى جحيم الأرض .

على أنها لدى علماء النفس والتربية التجريبية لا تقل عن الرجل في
القدرة العقلية في المتوسط ، وإن لم تستطع الوصول إلى ذروة العبقرية التي
قد يصلها الرجل ، أو الانحدار إلى الغباء المجسد الذي قد يصل إليه بعض
الذكور . والمرأة عند هذه الطائفة أكثر تحملاً من الرجل وأكثر حساسية
ورقة ، وإن كان تفكيرها مشوباً بآثار عقد النقص التي توارثها جندسها
عبر القرون حين أذلها الرجل وجعلتها قوانينه في وضع أدنى من وضعه ،

و حين فرضت عليها بعض التقاليد الاجتماعية حياة السجن التي قد لا يطيقها حيوان .

هذه التقاليد الموروثة عن آراء دينية وأخلاقية مبعثها أن الصون والعفاف بيد المرأة لا بيد الرجل . ومن أجل ذلك كانت المرأة موضعا للرقابة التي كان البعض يغالى فيها فيخصي خدمه ، ويصنع للمرأة الأقفال التي تغلق وتسمى «لباس العفة» لدى اغتراب رجلها أو خروجه إلى الحرب والترحال . هذه التقاليد وما فرضته من قيود ، مع طبيعة المرأة من حيث هي ملتقى الشهوة ومنجبة الأطفال ، هي التي كيفت تفكير هذا الجنس الجميل تكييفاً خاصاً في الدرجة لا في النوع .

والمرأة عند الحكماء مكملت للرجل ، تدور في فلكه دون أن تستقل بذاتها وإحاطتها بالرجل مصدر إشعاع ، وحافز للعبقرية ، ومخرج للفن من ظلمات الخمول إلى نور الإبداع وذلك «لأن مجرد وجودها يحدث نشاطاً في الهمم وتألّقاً في الأفكار» ، «فان المرأة مثل القمر (أقصد معناه الفلكي لا الشعري) ، فهي لا تشع ضوءاً من داخل نفسها ، بل تعكس الضوء الآتي إليها من شمس عقل الرجل . هي كالقمر كائن سلبي ، و سطح معتم في ذاته لا يستطيع إلا بما ينعكس على قلبها وعقلها من تفكير الرجل وإحساسه . . . فدنوها منه في مجال العمل المنتج ، له من الفائدة ما يعادل فائدة المرأة إلى جانب المصباح إنها تضاعف نوره وتزيد إشعاعه . » (١)

وعلى ذلك فهو من المعتقدين — على أساس الظواهر — بأن طبيعة المرأة أقل مرتبة من طبيعة الرجل . فهي ليست كيانا مستقلا بذاته بمقدار ما هي من مكملات الرجل وملحقاته الطبيعية لا على أساس الاستعباد ، ولكن على أساس الاندماج والتلاشى من كلا الجانبين في سبيل الاهداف الاجتماعية المشتركة التي يساهم كل منهما فيها بمقدار إمكانياته .

وقد يكون في فكرته هذه متأثرا بمشاهداته وتجاربها في مصر وخارجها ، وما رآه في المرأة على اختلاف طبقاتها وبيئاتها من حرص مبالغ فيه على القشور دون اللباب ، ومن تفاهة في التفكير لا تخفى حتى تبدو من جديد ، ومن ضيق في الأفق وأنانية غالبية ، تجعل نظرتها إلى الحياة من زاوية شخصية دون كبير تمعن أوروبية . أما أنا فأخالفه في هذه الناحية إلى حد ما . فقد رأيت أن التفاهة قد توجد في الرجل قدر وجودها في المرأة ، وأن الاتزان والاتساق وتكامل الشخصية لا يقل وجوداً في المرأة عنه في الرجل إذا ما سمح لها بالحرية الكافية وبالتعليم الكافي اللذين يبرزان شخصيتها ويقضيان على عقد النقص التي ترسبت في لا شعورها منذ آلاف السنين .

— والحكيم قد يقسو على المرأة ، ليس حبا في القسوة ذاتها كهدف ، وإنما كشفا عن الحقيقة وإشاراً للصراحة ورغبة في الإصلاح . وهذه هي الناحية التي أثارت عليه المرأة في فترة ما فيها جمته هجوماً مرأوا جعلت منه عدوها . ويعود هو فيقرن ذلك بطبيعة المرأة كما يفهمها «المرأة ثور الكلام ولا ثور للفعال . إنها تغضب لكلمة تسمعها ولا تغضب لصفعة على وجنتها .»

ومع ذلك فهو يحاول أن يكمل رسالة قاسم أمين الذى أزاح عن المرأة حجابها المادى، فى حين يحاول الحكيم أن يحطم حجابها المعنوى، فيدفع بها دفعا إلى خضم المجتمع مسلحة بكل الأدوات التى تجعل منها عنصرا اجتماعيا نافعا. فهو يتمنى لها التقدم دائما، ولا يختلف معها إلا فى معنى كلمة «التقدم»: «فهي تفهمها على أنها الجرى فى أثر الرجل واللاحاق به وأنا على العكس أرى الرجل هو الذى يجرى وراء المرأة. فالمسألة فيما يبدو لا تعدو مجرد الخلاف فى الرؤية والنظر. وحتى الآن لم يفتح الله على الجنس البشرى بواحد ذى عينين سليمتين ليبصر لنا أيهما هو الذى يسير خلف الآخر»^(١).

وإيمانه «بتطور» المرأة المصرية لا حـد له، ففيها فضيلة كبرى، هي أنها قديرة على التطور السريع ومن هنا سمح لنفسه دائما بأن يصارحها إلى حد العنف حتى يلفت نظرها إلى مافاتا رؤيته أثناء خطوها الواسع. «يخيل إلى أن السهولة التى تتطور بها المصرية سببها بسيط؛ أنها تحتفظ دائما بطبيعة المصرية القديمة تحت ثياب الجارية العثمانية. فما علينا إلا أن نذهبها إلى خلع هذه الثياب شيئا فشيئا لتبدو حقيققتها الأولى المجيدة: تلك التى كانت تحسن إدارة البيت والمملكة، وتعنى بأمر الفنون وتضع أساس الحضارة. سأتكلم دائما هذا الكلام ولن أكف عنه، وإن تعرضت للسخط العام، حتى أرى المرأة المصرية قد نفضت عنهارداء العبيد والجوارى البيض لتظهر من تحته سلية نقرتي وحشيشوت»^(٢).

وهو في تفكيره الخاص بالمرأة ينظر إليها نظرة مزدوجة : المرأة
ككائن اجتماعي ، والمرأة كجنس .

✱ فمن الناحية الاجتماعية المرأة عنده ذات رسالة اجتماعية خاصة :
بمشاركة الزوج في السراء والضراء ، وإعداد جيل الناشئة الجدد ، والمساهمة
عن طريق ذلك في بناء التشكيل المستقبلي للمجتمع . ولتحقيق هذا الهدف
يجب على المرأة أن تتسلح بكل المعارف الممكنة التي تجعل منها زوجا وأما
صالحة . وهو يرجع جلوس الأجيال الماضية في المقاهي والحانات إلى
هروبهم من وحشة المنزل الذي لا يحوى غير نساء كالخادومات (« نعم إن
المرأة للبيت . ولكنها لكي تكون بحق ملكة البيت وقرة عينه يجب أن تثقف
أكمل ثقافة إن المرأة زهرة البيت وروحه . بل زهرة المجتمع
وروحه ولنذكر أننا إلى اليوم دفع غائبا ثمن سجن المرأة المصرية في
الماضي : فهي كلما دعتها الظروف إلى مواجهة الحياة والمجتمع اهتزت قدمها
ضعفا ، واحمر وجهها حياء ، وتلعثمت وتعثرت في هزالها النفسي الفكري ،
وظهرت بمظهر يدعو إلى الرثاء والإشفاق ، وبدأت للأعين أقرب إلى
الخادومات المحجوبات منها إلى سيدة مهذبة قوية بشخصيتها وتجاربها ، واثقة
من نفسها ومن احترام الناس لها إن إقصاء المرأة عن مجتمعنا كما يقص
الحيوان الحقيير جريمة فظيعة هي القتل المعنوي بعينه لا أكثر ولا أقل ،
وهي الامتهان لكرامتها ولأدميتها امتهانا يجب أن نشور من أجله وأن نقيم
الدنيا وتقدها ولا تسكت عنه كما سكنت فيما مضى من الأجيال فإن

المسألة مسألة حياتها أو موتها، وإن الذين يريدون قتلها باسم الدين — والدين براء — لا يدركون أنهم بذلك إنما يقتلون أنفسهم بأيديهم. إن عقل المرأة إذا ذبل ومات، فقد ذبل عقل الأمة كلها وماتت. (١)

ومن هذه الزاوية نجده يهاجم المرأة التي لا تعرف رسالتها الحقيقية فلا تحسن الحرية المعطاة لها وشيكا وهذا هو جوهر رواية (الرباط المقدس). كما أنه يحارب تلك التي تؤسس أحزابا سياسية، أو تندفع في الميادين الاجتماعية السطحية، أو التي قد تغلب عليها الثقافة النظرية فتهمل بيتها.

ولا نغنى بذلك أنه يحرم على المرأة مشاركة الرجل في كل وجه من أوجه نشاطه. فهي تتلقى من التعليم أكبر قسط تحت قبة الجامعة بالقدر الذي يوسع مداركها ويمكنها من المساهمة في إعلاء الجيل الجديدون أن يؤدي بها ذلك إلى إهمال واجبتها الأسمى. وهو يخشى أن لا تخرج الجامعة مثيلات لباحثة البادية ولا قريعات لمى... ولكنها تخرج شيطانات صغيرات قد أكسبهن الخروج إلى المجتمع والاختلاط بالرجال والاتصال بذوى الأفكار شيئا كثيرا من الفطنة والذكاء، لأن الذكاء سلاح خطر لا ينبغي أن يوضع في يد امرأة إلا بعد إعداد روحي طويل. (٢)

والمرأة بجنس لا تلقى من الحكيم ذلك القدر من الاحترام الذي تلقاه امرأة ككائن اجتماعي. فالمرأة عنده هي المرأة دائما سواء ألبست النقاب

(١) تحت شمس الفكر ص ١٤٩ — ١٥٠

(٢) حمارى قال لى ص ٦٩

والخلخال أم الوسام وخوذة القتال . هي منذ آلاف الأعوام تنفس من إحدى رثتها بالهواء ، ومن الأخرى بالرياء . ومامن امرأة عنده تطبيق حمل رفيع الأفكار أكثر من قدر بسيط معلوم ، يحسن أن تتخلله قترات مداعبات عاطفية ، وتفاهات أو محادثات سطحية . ومن هنا نجده لا يحجم عن إشعار المرأة وهي أمامه بأنها مخلوق تافه حقا .

وبسبب هاتين الزاويتين لنظرة الحكيم إلى المرأة ، خلط الناس كثيرا في أمر علاقاته بالمرأة ، واتهموه أحيانا بالتناقض إذ هو في نظرهم يحمل عليها مرة ، ويشيد بذكرها مرة أخرى . وهو يجب عن ذلك بأنه في الحقيقة في كلا الحالين يعتقد ما يقول ؛ « فالمرأة من غير شك هي الزهرة المشرقة في بستان وجودنا الآدمي ، زهرة لها نضارتها وعبرها ، ولكن لها أيضا أشواكها . جمال المرأة وفنتها : تلك هي في نظري أشواكها الحقيقية التي تضع فيها كل سموم سلطانها وسطوتها . فالمرأة إنما تشهر علينا نحن الرجال هذا السلاح ، وتقف به في وجه أعمالنا ، آمرة فينا وناهية ، صائحة بنا أن نقف في طريقها كما تقف القافلة تحت تهديد قطاع الطريق ، لتأخذ منا كل ما عندنا من وقت وقلب ومال وجاه وشهرة . إنها لتجردنا من كل شيء وتركنا عراة تحت سلطان سلاحها المسلط المخيف ! أين هي المرأة الجميلة التي لم تستخدم جمالها في إخضاع الرجل ؟ كم امرأة في التاريخ جعلت جمالها في خدمة « غاية أسمى » من إخضاع الرجل ؟ إن المرأة ليست لها الشجاعة أن تنكس سلاح جمالها في وجه الرجل . إن المرأة مخلوق « غير سلمي » متى وجد في يدها

سلاح تحركت فيها غريزة السطو والحرب . إن المرأة الجميلة هي عدو
الرجل المفكر .^(١)

.....

وهكذا نرى أن إخراج المرأة والفلاح كل من (قممه) بمثابة القاعدة
في توجيهات الحكيم الاجتماعية . ويبقى بعد ذلك تنسيق الأحجار الأخرى
ووضع كل منها في المـكان الملائم ليكون البناء الاجتماعي سليماً متماسكاً
ومتناسقاً .

والإطار العام لهذا المجتمع كما يفهمه يجب أن يغلف بالدين — لا كما
يفهمه المتزمتون ، ولكن على أساس النظرة الواسعة والتشبع
بروح الدين دون أن يكون في ذلك عائق في سبيل متابعة أوجه النشاط
الفكري والاجتماعي الأخرى .

والذي ينظر إلى الدين في جوهره يجد أنه قبل كل شيء تنظيم اجتماعي
فانه في ناحيته الميتافيزيقية قد أثار قدراً كبيراً من الاختلاف خاصة في
العصور الحديثة التي خضع فيها كل شيء للمنطق والعقل .^(٢) وما ظهر
الأنبياء إلا ليوصلوا شعوبهم خاصة والناس عامة إلى قيم اجتماعية خالصة ،
وابستعانوا في تبليغ رسالاتهم بالثخوف من عالم مجهول والترغيب في سعادة
لأنهاية لها . ومع قوة عاملى الثواب والعقاب في تماسك الفكرة الدينية ، فانها

(١) تحت شمس الفكر ص ١٥٦ — ١٥٧

(٢) انظر التفصيلات في كتاب عباس العقاد : الله

ليس في حد ذاتها غاية ، بل هما وسيلة لوصول الإنسان إلى مرحلة يستطيع
أن يميز فيها الخير من الشر بدافع من نداءاته الداخلية ، وأن يتمسك بالفضيلة
والخير كقيم عليا لها مكانتها في حد ذاتها . والذي لا يفهم الدين على اعتبار
أنه شيء إنساني واقعي ، يقصد إلى تنظيم العلاقات الاجتماعية بالاستعانة
بقيم روحية يكون قد أخطأ فهمه ، ويكون قد فتح الباب لمناقشات بينظرية
لم يصل المفكرون فيها إلى الآن إلى شيء يفيد . هذا إلى أنها كانت من الوسائل
التي استغلت لتكبير المعايير الفردية والاجتماعية في فترات الانحطاط العام .
هكذا كان رجال الدين في أوروبا والشرق في العصور الوسطى بالنسبة لكل
من المجتمعين . أقاموا من أنفسهم حماة للأخلاق باسم الدين . وكانت النتيجة
محاكم التفتيش وفساد رجال الدين والظلام الفكري الرهيب في الغرب ،
واضطهاد الفلاسفة في الشرق والأندلس .

ولكن التطور لا يعرف قيودا من هذا النوع . فسرعان ما جرفت
النهضة الأوروبية البابوية ورجال الدين حين ظهر المجددون من أمثال كلفن
ولوثر وزونجلي وغيرهم . . . واليوم يقوم جان بول سارتر بسحق هذه الطبقة
سحقا تاما . فان الإديان لم تنص صراحة على وجود طائفة الكهان والمتشحيين
بالسواد متى كانت مرامها واضحة وصريحة بحيث يكون الاتصال بين العبد وربّه
اتصالا مباشرا . أما الكهانة فهي من فعل التطور الزمني للفكرة الدينية حين
تدخل فيها الأطماع والمنافع . وإن محمدا وعيسى قد حاول كل منهما أن
يحطم كهانة قريش وأورشليم ، لأنها أتيا بأفكار لا بطقوس .

وفي ظل الدين الاسلامي قامت تلك الحركة العقلية الكبرى التي أسهم فيها المسلمون من كل جنس ، فأخرجوا للناس حضارة من نوع واسع . فلم تقم حجازا دون معرفة أفلاطون وأرسطو وجالينوس وإقليدس وغيرهم . وفي ظل مثل هذه الحركات العقلية الكبرى لا يقف الدين عائقا أمام المعرفة مادام العاملون عليه من طائفة العلماء الحقيقيين .

أما في عصورنا الوسطى فقد قامت طائفة الكهان ومشايخ الطرق (١) . وندر حينئذ أن تجد صاحب رسالة عليا ، بل إن في الناس كثيرين ممن يجهلون الدين في معناه ومبناه ، ويقصرون همته في نطاقه على ما يعود عليهم من الاشتغال بالأمور الدينية من ثروة وجاه ونفوذ .

وقد آن لنا في نهضتنا الحديثة أن نقضى على السكينة قضاء تاما . فان الدين للجميع والله رب الكل . وآن لنا أن نخرج بالدين عن دنيا الطقوس والتأتم ، وأن نعلو به ونرجع به إلى أصله : إلى رساله علوية ذات أهداف اجتماعية بجوار هدهدتها الروحي . ومهما أثير حول الفكرة الدينية في حد ذاتها من قيل وقال ، ومهما كثر دفاع أنصارها ، وتهجم موجات الإلحاد التي أخذت تدب في الفكر وراء تحرره الحديث ، فان عمانوئيل كانت قد أدلى برأى يصح أن يستشهد به الناس جميعا في فهم حافز الدين . قال إن الدين سياج الأخلاق .

والحكم مؤمن بالدين قدر إيمانه بالمعرفة . وهو يجد أن التوفيق بين العلم والدين ضرب من العبث . فان اجتهاد المجتهدين في هذا السبيل

(١) توفيق الطويل : التصوف في مصر في إبان الحكم العثماني .

لم يتعد ذلك الجانب من الدين الخاضع بطبيعته لحكم العقل ، وهو الجانب الاجتماعي المبني على الأخلاق وما يتفرع عنه من فكرة الفضيلة والرديلة .

« وهنا يتساءل الناس دائماً : ما الدين ؟ أهو شيء مفيد للبشر في أمر حياتهم ومعاشهم ؟ أم هو طريق لحل اللغز الأكبر وسبيل للنفوذ إلى المجهول الأعظم ؟ في الواقع أن كل دين من الأديان المعروفة يتكون من هذين الوجهين . فالدين باعتباره قانوناً اجتماعياً ينظم الغرائز ويحفظ التوازن بين الخير والشر ، هو أمر متعلق بذات الإنسان ، متصل إذن بعقله وعلمه . على أن عنصر « الأخلاق » في الأديان ليس كل جوهرها . فان بعض البلاد قد استطاعت أن تجد في « الأخلاق » غنى لها عن « الأديان » . إنما قوة الدين وحقيقته في العقيدة والإيمان « بالذات الأزلية » . هنا لا سبيل إلى الدنو من تلك « الذات » إلا عن طريق يقصر عنه العلم الإنساني ، بل يقصر عنه كل علم ، لأن العلم معناه الإحاطة ، والذات الأبدية لا يمكن أن يحيط بها محيط ، لأنها غير متناهية الوجود ، فالإتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل . ها هنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر . فليترك رجال الدين المفكرين يفكرون كما يشاؤون ، ويثرثرون كما يريدون ، ويعرضون بضاعتهم الكلامية التي هي كل بهرجامهم الآدمي الأجوف ، فان كل هذا الضجيج لن يصل خبره إلى القلب الذي لا يفتر لحظة عن التسميح رغماً عنهم بالعقيدة التي ركبت عليها حياته النابضة . » (١)

والنبوة عنده ذات صفة إنسانية محضة . فالرسول من رسل الله إن هو إلا شخص يمتاز على سائر الأشخاص بجلد وخلق وإيمان . ومن هنا كان تفضيل الله له على سائر معاصريه وتخصيصه بالنبوة . والوحي وهذا هو الاتجاه الغالب على مسرحية « محمد » التي تظهر عبقرية رسول الإسلام في إطار الدوافع الإنسانية والشخصية البشرية . ولعل من باب الصدف أن تنشر مسرحية « محمد » في الوقت الذي ينشر فيه بحث الدكتور حسين هيكل عن « حياة محمد » فالبحثنان يستوحيان الروح الحديثة في دراسة بنى الإسلام فيظهرانه في حدود الدوافع البشرية لا المعجزات الخارقة والخرافات التي أحاطت به على مر العصور حتى أنها استقرت في أذهان العامة . وبما لامرأ فيه أن بنى الإسلام وأن القرآن ماقتنا يوجهان الأذهان إلى أن محمداً ليس سوى بشر يوحى إليه . ومن هنا كان « محمد » يستشير صحابته فيما جل ودق ولا ينفرد دونهم برأى أو قرار مادام أن القرآن لم يفرض فيه حكماً خاصاً . وفي هذا يختلف الإسلام اختلافاً جوهرياً عن الدين المسيحي الذي لم يستقر أنصاره استقراراً نهائياً حول طبيعة صاحب رسالته . فالبعض يرى أن المسيح إنما هو بشر ، على أن هؤلاء لا يستطيعون أن يتصوروا في المسيح كيانا بشرياً خالصاً . والبعض الآخر يرى في المسيح طبيعتين : ناسوت ولاهوت ، فهو عندهم روح الله الذي نزل إلى الأرض في صورة البشر ليظهر الأرض من الآلام والخطيئة ، وليحمل وزر الأدران الإنسانية ^(١) !

(١) اقرأ حياة السيد المسيح كما هي أقرب إلى الأفهام في كتاب (المسيح عيسى بن مريم) لعبد الحميد جودة السحار

وعلى العموم لا يمكن لذي عقل أن يتصور في الأنبياء خوارق وراء الطبيعة البشرية، وإلا فماذا يمكن أن نقول في المخترعات العلمية الحديثة؟ أما ناحية القوة الكامنة فيهم، فهي في مثالياتهم وحبهم للخير للبشر، وصبرهم ومثابرتهم لنشر مثلهم العليا ولو كره الناس جميعا.

والدين الإسلامى عند الحكيم أقرب الأديان إلى طبيعة البشر وإلى الأفهام، لا عن تعصب أو منطق تبرير، ولكن على أساس الاستقراء العلمى: «فهو دين بسيط فطرى لم تدخله صناعة. كل شيء فيه صادق خالص صاف. ليس فيه إنكار لقوانين الطبيعة، بل فيه مساهرة حكيمة ومضاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوى على البشر من حيث تركيبهم المادى والمعنوى. ذلك أن أسلوب محمد فى إدراك «الحق» كان أسلوبا مستقيما. فهو قد أدرك أن «معنى» الحق إنما هو «السبب» الذى يصدر عنه الناموس الأكبر، وأن روح الوجود هو «النظام» إذ لا يتصور أن تكون «الفوضى» من عناصر الخليقة. بل إن «الفوضى» إذا حلت فى نظام الوجود انقلبت نظاما، لأنه لا وجود بلا نظام، بل إن كلمة «الفوضى» لا محل لها إلا فى أدمغة البشر، يعبرون بها عن كل ما يحدث شيئا من الخلل فى ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة. أما الكون غير المتناهى فلا يعرف غير النظام، هذا النظام الذى فرض على الإنسان والحيوان والجماد. هل من سبيل إلى مخالفته؟ إن مخالفة النظام الطبيعى للإنسان والأشياء مخالفة لله، وكل دين يقف فى وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله، لأن الله لا يناقض نفسه. كل هذا فهمه محمد ووعاه ببصيرته النورانية النافذة. فجاء

أسلوب الإسلام في الإفصاح عن « الحق » واضحاً جلياً ، لا يأمر بالرهبة ولا بالفرار من الدنيا ، ولا بتعذيب الجسد من أجل الله ، لأن الله لا يأمر بتحطيم ما بناه .

« إنما يريد الله أن تعيش الأحياء طبقاً لقوانين الحياة التي وضعها لها ، وأن تجاهد في سبيل هذه الحياة ، وأن تغلب على عناصر الفناء بما هيأه لها من مناعة طبيعية ، أو مناعة اكتسابية . والدين هو المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية .

« فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة ، فإن الإسلام بلا مرأ هو دين الصحة في كل شيء . فهو ذو صوت جهير في الدعوة إلى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيداً ، فإن مستقبله ولا ريب يبشر بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين ، وننقيه من شريرة المتنطعين ، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين ، وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية التي لا تصدم تقدماً ولا تعارض التطور الطبيعي للأذهان والأشياء . » (١)

دائماً توجد في كل دين هذه الطائفة من الجامدين والمتنطعين والمحترفين التي هي مسئولة إلى حد كبير — من الناحية السلبية — عن موجة الإلحاد والكفر بالدين . إن العالم يتطور وهم لا يتطورون مما دعا المنفقين على

حريتهم الفكرية إلى الاشتطاط ومهاجمة الدين في أشخاص كل هؤلاء .
ولكن يجب الحذر ، فهؤلاء الناس ليسو هم الدين ، ولا قيمين على
شئونه . فليس لهم الحق إطلاقاً في أن يتكلموا باسمه دون غيرهم . اتركوا
الدين للناس وهو وحده كفيل — بقوته العارمة — أن يتغلب على طائفة
المتشككين والضالين^(٢) ، فانه يمثل قيما خالدة لا تفنى وإن فنى الأشخاص .
وسر المحنة الفكرية في أوروبا اليوم أن الناس قد اطرحوا العالم الآخر الذى
تصوره الأديان ، ولم يعرفوا لهم غير عالم واحد : هو الأرض ، ولم يعرفوا
لهم إلا أسلوباً واحداً هو المنطق العقلى والتجريب العلمى . فأوروبا الآن
قلقة وحائرة في أزمتها الراهنة ، ولا شئ من داخلها يستطيع إنقاذها . فان
التكالب على هذا العالم الواحد : عالم الواقع والدنيا قد أزاغ الأبصار ، وإن
وسائلها المادية لا تهينها إلا لفهم مظاهر الحياة السطحية . وأين نجد الاطمئنان
إن لم نجده في المشالية الدينية ؟ عبثاً تحاول الإخلاذ إلى قيم أخرى تجلب لك
الاطمئنان . فسلم والى السلاح ، فان لم تكسب شيئاً فلن تخسر شيئاً

ومع إيمان الحكيم بالدين عامة والإسلام خاصة ، نجده واسع الأفق
لا يعدل شئ في نظره الحرية الفكرية وإن كانت في ميدان الدين . أثبتت في
مصر معركة حول رسالة الأستاذ محمد خلف الله عن « قصص القرآن » ،
وصحبتها ضجيج وصخب حين بدا للبعض أن المؤلف إنما يقصد إلى (رمزية)

(٢) انظر الفصل التاسع عشر من « عصفور من الشرق » فهو يوضح تماماً ما عقلية
فلحد ، أصبح كالريشة في مهب الرياح . ثم حاول أن يعود إلى حظيرة الدين
والروح عن إيمان وحماة وعقيدة .

قصص القرآن لا واقعيتها . وحينئذ تحرك طائفة الجامدين والمتنطعين والمحترفين ترمى صاحب الرسالة بهم لو أثرت في العصور الوسطى الأوروبية لكان مصير صاحبها الحرق علناً في ساحات المدينة . في تلك الغمرة كتب الحكيم مناصراً (حرية الفكر) التي لا يخشى على الدين منها إطلاقاً . فدافع عن صاحب الرسالة دفاعاً شديداً .

فتوفيق الحكيم متدين ، ولكنه تدين المفكر واسع الأفق الذي لا ينظر إلى القضايا الجزئية إلا بربطها بقيم كلية . وهو متحمس للدين لا تحمس الكاهن ، ولكن تحمس العالم المؤمن الذي لا حد لإيمانه بدينه وقدرته على البقاء مهما اختلف فيه الناس . يكره التعصب أيما كان مصدره ، حتى وإن كان فولتير — ذلك الفيلسوف المتحرر الذين تدين له فرنسا وأوروبا بحركة الإصلاح الاجتماعي التي تلت الثورة الفرنسية — كتب فولتير مسرحية عن « محمد » سب فيها النبي العربي سبا قبيحاً تملقاً للبابا . وعندما اطلع عليها الحكيم كان موقفه من صاحبها موقف الخجل أن يكون فولتير من أصحاب الفكر الحر .

هذه هي فكرة الحكيم عن الدين ، وهو فيها من المجددين الذين يمكن أن نقرنهم بطائفة جمال الدين الأفغانى والاستاذ الإمام ، ممن يتطورون بالفكرة الدينية وفقاً للزمن ، فيظهِرونها بالمظهر الذى يتمشى مع روح العصر دون أن ينالوا من جوهرها أو من غايتها . يصيدون ماء الحياة على طقوس جامدة ، بقايا متعفنه ، وعقليات ضيقة — فتدب فيها الحركة التي تخدم الناس في أعز مآلديهم .

والأخلاق شق كبير من المثالية الدينية ، فهي مظهرها الاجتماعي .
ومن الزاويتين الدينية والاجتماعية للأخلاق نجد الحكيم في الطليعة المحددة
التي تسعى جاهدة إلى تحطيم الأوهام والأصنام التي تحول دون اقتراب الناس
من مثلهم الأعلى .

ونظرة واقعية إلى مجتمعنا تقنعنا بأننا في أزمة أخلاقية . اختر ماشئت
من دولابنا الاجتماعي تجد فيه مظاهر واضحة لهذه الأزمة والذي ينظر
إلى باطن هذه المشكلة الأخلاقية ، يجد أنها موجهة مما يغمر الناس حين
تتكسر التقاليد القديمة دون أن يصحب هذا التكسر بناء جديد . هي
اختلاف في القيم بين الحاضر والماضي دون أن توجد القنطرة التي
توصل بين الجيلين .

وجيلنا القديم الذي أوشك أن ينقرض كان جيلاً متديناً ، تسير حياته
في يسر ، وعلى أنماط ثابتة شكلها الإطار الديني الذي ورثناه عن الماضي .
وكان هذا الجيل سعيداً لا يحمل هم الغد ، بل يترك كل شيء كما ظنه مقدراً
ومحفوظاً في اللوح منذ الأزل وما من مصيبة تنزل بأحدهم إلا وأرجعها
إلى علة علوية . وبررها بمنطق ديني لا يغلبه شيء . وقد رتب الجيل القديم
كل شئونه ، وحدد العلاقات بين الكبير والصغير ، وبين الرجل والمرأة ،
وأصبح للمجتمع بذلك منزلة كبرى تفرض على الأفراد أنماطاً خاصة
لا يبرحونها إلا ويتناولهم المجتمع بالسنة النقد .

أما الآن فقد كفرت الأجيال الجديدة بهذه القيم القديمة ، ورأت في
الكثير مما كانت تفرضه طغياناً لا مبرر له . وتحرر الشباب من كل القيود ،

وأصبح يصدر في أعماله عن أحكام فردية محضة . وهذا في حد ذاته أمر طيب في الحدود المعقولة ، فإن الحرية كما رأينا هي المنمية للفردية . ولكنها سلاح ذو حدين . تؤمن بالحرية التي يصحبها التوجيه . أما الحرية التي أسأنا استعمالها والتي أخطأ الجيل القديم فهمها وحاول جاهدا أن يكتبها ، ففيها يكمن الخطر . وعلّة انهيارنا الأخلاقي أن الحرية التي تسلمها الجيل الجديد كانت مطلقة لا تصاحب القيم المقررة ، أو المثل الواجب اعتناقها . فإن الجيل الجديد قد تسلم حريته دون أن تتكامل شخصيته .

وجاءت السياسة المرتجلة لتزيد الأمر ضعفا على إباله . فقد أصبحت أشبه بملاهي الأطفال لابسيسة الرجال . أحزاب تقوم على الأشخاص لا على المبادئ ، فهزت كيان الشباب وعلمتهم أن يهتموا بأنفسهم دون أن يهتموا بمجتمعهم وتقدمه . وما دام طابع الأحزاب هو الطابع الشخصي ، فلا مانع من خروج عضو من حزب وانضمامه إلى آخر خاصة عندما تبشر غيوم السياسة المحلية بانقلاب جديد . ورأس مال أعضاء الأحزاب ونوابها هو مقدار «تضحية» هذا العضو أو ذاك — ومقياس التضحية هذه هو مبلغ ما يدفعه للحزب أو عدد مرات الحبس في معارك التهريج . لا في معارك المبادئ . ولا فلاس الزعماء في المبادئ نجدهم يصطنعون عبارات ديماجوجية ملؤها بريق الكلام المسجوع ، والخطب المزركشة المنمقة ، والمغالطات السوفسطائية . تلك هي مدارس السياسة الحديثة ، وقد خرج غرسها أشواكا طفيلية لا فائدة فيها في حد ذاتها ، بالإضافة إلى إعاقتها الطريق القويم . فإن سعد زغلول — رائد هؤلاء السياسة — وهو الزعيم الذي هز جيلا بأكمله

بفصاحته وقوة عارضته ، كانت عنده من الوسائل ما يوجد في أيدي الزعماء في الدول الناشئة . كان في إمكانه أن يرسى القواعد الثابتة للمصريين جميعاً دون تفرقة بين (زغلوليين) وغيرهم . ولكنه كان (أزهرياً) ضيق الأفق ، يحاول جاهداً أن يحتفظ بمركز الزعامة الذي خلعت عليه الظروف ، ولو عن طريق المهارات (١) . ولم يلتفت إلى إرساء قواعد إصلاحية تقوم على المبادئ والدراسة بمقدار استهوائه للشباب بكلماته الرنانة التي لم تفد البلد شيئاً . وهما هو ذا قد خلف لنا أوضاعاً سياسية قوامها الأحزاب الشخصية التي هي أشبه ما تكون (بالشلل) ، دون أن تشبه من قريب أو بعيد الأحزاب المنظمة ذات المبادئ في البلاد الغربية . وليس من عجب في ظل هذا الإطار أن يكون هدف هؤلاء الساسة والمستوزرين هو الحكم ، ولا شيء وراء الحكم . « نعم إن (الحكم) أصبح الآن مثل أرجوحة (الخيول الخشبية الدائرة) التي يركبها الأطفال في مقابل مليات ، ولو أعطى الطفل ألف مليم لا تنفقها كلها في هذه اللعبة اللذيذة ، فهو يحب الركوب لمجرد الركوب فوق هذا الحصان الخشبي المطلي بالذهب ، الملون بأزهى الألوان الخادعة . وإن دوره ينتهي ورأسه يميل من الدوار فلا يفيق إلا وقد أنزله صاحب الأرجوحة على الأرض ، فيظل واقفاً بلا حراك ينظر إلى حصانه يدور بغيره ، وفي قلبه الصغير حسرة ، وفي عينيه الزائفتين علامات الصبر النافذ ، إلى أن تنتهي الدورة فيخفق قلبه أملاً في أن يعود إلى الركوب . وهكذا دوأليك ! أما الفائدة من ذلك فلا شيء غير اللهو والسرور . فهو متى امتطى

صهوة الحصان الخشبي تملكه الغرور ، وظن أن هذا غاية الأمل وأنه قد وصل . ويلعب برأسه دوار (الأرجوحة) أو دوار السلطة الباطلة ، و (الفروسية الكاذبة) فيقنع بذلك ، ولا يفعل شيئاً غير ازدراء الواقفين في الانتظار ، وهو يمر بهم مر البرق متعاليا متصايحا صياح اللذة والظفر . » (١)

وهذه الفكرة التي أحيطت بالحكم والتي أحسن الحكيم التعبير عنها بأسلوبه الساخر ، قد أضاعت كل شيء . (فالحكم غاية الغابات . وعدم وجود مبادئ يختلف إزاءها الناس ، هو الذي طبع سياستنا بطابع الخصومة الكلامية المقذعة . ونهش الأعراض والتمسك بالسفاسف ، والاحذار المنتظم دون التفكير في مشالية من أى نوع . وامتد ذلك بدوره إلى الصحافة (فجعلت تغرى شخصيات الفكر والسياسة بعضهم ببعض للمباريات العلنية في أحدث ألوان السباب والإقذاع والإسفاف ، حاسبة بذلك أنها تسر قراءها ، كما كان العوام يسرهم قديما تناحر الديوك وتناطح الخراف . حتى فسدت أذواق قرائنا ، وانحطت مشاعرنا . وسفلت نفوسنا . » (٢)

وأصبح مبدأ الناس في الغالب هو الوصولية أيا كانت وسائلها . فتعاطوا السياسة يقبلون الأيادي ويتمسحون ، ويطلبون ويزمرون ، ويدفعون (الائتافات) . ويظل نادى الحزب من أولئك راكدا في المواسم العادية ، لا يؤمه إلا (المتعطلات) ولا عبو النرد ، يقتنعون وقتهم في (الدردشة)

(١) تحت شمس الفكر ص ١٢٠

(٢) انظر : تحت شمس الفكر

السياسية ، وتدير المقالب ، وإخراج الإشاعات . حتى أين الوقت الذى يدعى فيه الحزب إلى الحكم . حينئذ يمتلئ النادى . وضيق بمرتاديه وأعضائه . والشعب — أو النظارة فى هذه المهزلة — لا يكثر لهذه اللعبة ، أو الرواية التى مجها . إن هى إلا أسماء تسمى دون أن تكون وراءها مدلولات متميزة . والناخب يساق إلى صندوق الانتخابات ، وهو لا يدري شيئاً من أمور السياسة العليا التى ترسم مصائر البلد . فهو لا يحس إلا عصبية تلهب ظهره بسياطها وتهديداتها حتى لا يتوانى فى إعطاء صوته ، أو ثمانية قبضه . أجلا على شكل وعود براقعة أو معجلا على شكل أوراق مالية لا يحلم بها . هذا إلى تزوير الانتخابات الذى أصبح عندنا أمراً عادياً يتقرب به رجال الإدارة إلى الحزب الذى ينتظر أن يثب إلى كرسى الحكم وصولجانه .

ووراء ذلك كله تجد فئة المرتزقة الذين ينتظرون موسمهم و (ثمرة) جهادهم ! فالوصولية ذات أهداف معروفة : الثراء بأى ثمن . ويسير الوصوليون فى ركاب السلطان ، ويصطنعون لذلك أساليب الملق والرياء وإطراء الغرور لدى الحكام . ويكون قبض الثمن من مال الدولة لا من مال الأحزاب الذى يتضاعف هو الآخر فى مواسم (المحصول) ! لقد كثرت السامرة الكبار فى أسواق الذمم الخربة ؛ فأصبحوا مسغلي نفوذ ، وتجارا فى السوق السوداء ، وأعضاء فى الشركات الاحتكارية التى تتخذهم ستارا لامتصاص دماء الشعب المسكين كما أصبحت الأداة الحكومية متضخمة مرتبكة بما حشر فيها على مر الأعوام من جيوش الأنصار والمحاسيب ، ممن لا يحسنون عملاً ولا يتحملون تبعه .

وإذا شئت أن تجد وصفا حقيقيا لاذعاً لهذه الأوضاع كلها، فلتقلب
(مسرح المجتمع)، ولتقرأ (مفتاح النجاح) و (اللص) و (أعمال حرة)
و (الرجل الذي صمد)، ولتقرأ أيضاً (شجرة الحكم) و (يوميات نائب في
الآرياف) لتخرج منها جميعاً بصورة حية للسياسة وكيف تسرى سمومها في
النفوس المصرية. لتفسد أخلاقها، ولتدفعها دفعا إلى تيار الانحلال.

وقد غطت السياسة في مصر على كل شيء وأفسدت كل شيء: «السبب في
ذلك بسيط: أن حياتنا فوضى، أو هي حياة أولية سديمية لم تتكون منها عوالم
منظمة متألفة يعيش فيها الناس. فأنك لا تستطيع مثلاً أن تقول في مصر عالم
الأدب وعالم العلم وعالم الرياضة وعالم الفن وعالم السياسة... الخ بالمعنى
المفهوم لهذه العوالم في أوروبا. فان كل طائفة من هذه الطوائف عندنا لم تستطع
حتى الآن أن تنظم نفسها تنظيماً يؤهلها لحصر جهودها المنتجة في منطقة معينة
بالذات. وقد نشأ عن ذلك أن الطائفة التي في يدها القوة واللقمة، وهم رجال
السياسة، قد برز عالمهم كالشمس فطغى على الآخرين ومحا من الوجود تلك
العوالم الأخرى النافعة التي كان ينبغي ألا تقل عنها إشراقاً.... وإلى أن
يكون لرجل العلم ورجل الأدب ورجل الفن في مجتمعنا عين الاحترام
والاهتمام الذي يقابل به رجل السياسة؟ إلى أن تكون للمظاهرات الأدبية
والعلمية عين الهزة والضجة التي تكون للمظاهرات السياسية — إلى أن نترك
هؤلاء البضعة القليلة من السياسيين المحترفين يصيحون ويصخبون في
نواديبهم...! ونصرف نحن المفكرين إلى نواديها ومجامعنا الفكرية...
الخ إلى أن تتعدد نواحي النشاط في البلد، ويذهب هذا النوم والخمول الذي

الحكم

السياسة

شمل كل جانب إلا ذلك الجانب العقيم: السياسة — إلى أن يحدث كل هذا فلا أمل في المجتمع المصرى . » (١)

وإذا أردنا أن نتقذ البلاد من داء الحزبية فلنصلح السياسة أنفسهم ، أو فلنصلح الجيل الجديد الذى سيخرج منه سياسة الغد . إذا أردنا أن نتقذ مصر الغد فى شبابها كان « عنيينا أن نصلح عيوبنا السياسية لأن ضررها قد امتد إلى أبنائنا ، وسمها زحف إلى صميم عملهم وكيانهم ومستقبلهم . ذلك أن الأوضاع الجديدة الديمقراطية كما يساء فهمها فى مصر قد صرفت شباب اليوم عن الجد والعمل . فان سرعان داء الحزبية السياسية إلى كتلة الطلاب واستخدام السياسة للطلبة ذلك الاستخدام المعروف ، قد جعل الطلبة من جانبهم يستخدمون السياسة هم أيضا للتدخل فى مسائل الدرس والامتحان . وبذلك فهم الشباب اليوم أنهم بمجرد الشكوى والإلحاح والوساطة لتخفيف البرامج ولتسهيل الامتحانات يستطيعون بلوغ ما كان يبلغه أسلافهم بالكد والجد والعمل . ثم كان من أثر تدخل السياسة فى شئون الطلبة والمدرسة أن ضعف نفوذ المدرسة هذا الضعف الذى أعجزها عن هداية الطلاب . ثم كان من أثر تفشى المحسوية — وهى إحدى نتائج مرض الحزبية — أن دب التراخى والتواكل فى المعلمين ، وغدا أكثرهم مثل بقية الموظفين وأكثرية الناس ، يتطلعون إلى المادة والترقى عن طرق الوساطة . وتأثر البيت بذلك وبما فهمه خطأ من مرامى كلمة الحرية والاستقلال ، فاستقل كل عضو فى الأسرة عن الباقين ، وتحرر فى تصرفاته واتجاهاته

وخرج عن طاعة رب البيت . فتفككت عرى الأسرة وحلت فيها الفوضى ،
وفقد الوالدان السيطرة على الأبناء ، وأصبح الصغار هم الذين يقودون الكبار
في البيت وفي السياسة . ولما كان الشباب هو طور اللهو والعبث وعدم
المسؤولية ، فإن تلاشي الحواجز التي تنظم هذا الطور تؤدي حتما إلى جموحه
وتغلبه . وهذا ما حدث بالفعل من انطلاق الشباب إلى اللهو انطلاقا لا يحده
شيء ولا يقفه أحد .^(١)

ومن أثر امتداد السياسة إلى دولنا الاجتماعية كله ، أن انطبعت
الأمة (بروح العصر) . فقد عم الملق والرياء ، وكثرت الفقاقيع ، وضاعت
المثالية وجرف التيار كل شيء إلا من عصم ربك : فقد مضى ذلك الزمن
الذي كنا نرى فيه الجاه والمال عاجزين عن انتزاع الطبيب من واجبه
الإنساني ، والقاضي عن عدله المنزه ، ورجل الفقه عن فتاواه المجردة ، والاستاذ
من بين تلاميذه ودرسه ، ورجل الدين من بين تابعيه وزهده . الآن نستطيع
بترقية أو بعلاوة لا تعدو جنيتها أن نلعب بلب أكثر هؤلاء وأن نصرّفهم
عن ميادين نشاطهم الطبيعي وأن نغريهم بمناصب لا صلة لها بعلمهم ، ولا
بفضلهم ، وهذا ما يحدث كل يوم ، فقد ماتت المثل العليا . وهذا ما أقفر
دور العلم والفكر والدين والزهد ودور العدل والفقه ، ودور الفن .
والآداب — من أربابها ، وزج بهم إلى التطاحن والتسابق في ميادين المادة
والوصول^(٢)

(١) شجرة الحكم ص ١٧ وما بعدها

(٢) تحت شمس الفكر ص ١٠٢

ولاشيء أوقع في النفس من تشبيه الحكيم « للنفاق » في مصر بقطنها
 حتى الشهرة العالمية : « سمعت أن « النفاق » له قيمة كبرى في الأسواق العالمية وأن
 أجود أنواعه يوجد في مصر ، كما يوجد فيها أجود أنواع القطن . . . ولعل السبب في
 تفوقه وتميزه بطول تيلته أنه يمتد إلى الطرفين : الفرد والمجتمع . . . فمثلا
 من الجائز أن يعتنق الفرد رأيا مخالفا للجماعة فتنهض ضده جماعة فيقبع في
 داره صامتا . . . وهذا ما يحدث في كل بلد آخر . . . أما هنا فيحدث غير
 ذلك . فلقد أخبروني أن أفرادا قاموا ينادون بأفكار حرة ، فاتهمهم الناس
 بالإلحاد ، فلم يكتفوا بالصمت ، بل قاموا في اليوم التالي يحملون المسابح
 السكرمان ويرتدون العباءم الخضر . وآخرون عرفهم المجتمع من أهل الخمر
 والسكر ، فلم يكتفوا بالتوبة الصامتة ، بل راحوا يتزعمون حركات الحزب
 على الورع . ونساء يرتكبن في السر الفجور وينادين في العلن بالفضيلة . وسياسيون
 قد خلق الله لكل منهم وجها واحدا . فصنعوا هم لأنفسهم وجوها عدة
 يستقبلون بها كل حكومة تقوم أو كل أزمة وزارية تطرأ . وأسرو عائلات
 توزع فيما بين أعضائها المبادئ والأحزاب . كما يوزع الله بين عباده القسم
 والأرزاق . ومرءوسون يداهنون الرؤساء على حساب الدولة ، ورؤساء
 يراؤون الشعب على حساب المصلحة . وسيدات يردن العبث واللغو فيقلن
 للناس إنه البر والخير ، وأهل دين يملئون الصحف ضجيجا حول
 الأخلاق ، ويدقون طبلا ضد الرذيلة وما يقصدون في سريرتهم غير التظاهر
 والإعلان . . . ورجال تقوى يأمررون الناس بالعفة . ويستثنون أنفسهم
 وذويهم . هذا بعض ما يتعلق بالطرف الأول وهو الفرد . . . أننا

الطرف الثانى وهو المجتمع فله نفاقه أيضا . . . فقد بلغنى أنه مامن مجتمع فى غير مصر يستقبل المجرم الخارج من السجن بالموسيقى والمزمار كما يستقبل الحاج القادم من الحجاز ! وهذا المجتمع يشتمز من اللص والآثم الشرير والفاجر ، ولكن لو ابتسم الحظ لواحد من هؤلاء فنال سلطة ، أو أصاب ثروة ، فسرعان ما يبتسم له المجتمع أيضا ، ويستقبله استقبال الأبطال . بل إن المجتمع ليعرف التاريخ المنجل لهذا المليونير والمضى المزرى لذلك السياسى فلا يمنعه ذلك من حملها على الأعناق .

« هكذا يرأى المجتمع الفرد ، ويدهن الفرد المجتمع ولا يدرى أحد أيهما مصدر « النفاق » . لذلك قيل إن النفاق يصل أحدهما بالآخر ، فلا نعرف أى الطرفين مصدر الآخر وكل الذى نعرفه أن النفاق ممتد بينهما يربطهما بخيوطه المتينة وهذا سر وصفه بالتيلة الطويلة » .^(١)

.

هكذا يعرض الحكيم حياتنا الاجتماعية والسياسية والأخلاقية . وهو فى روائعه الأدبية التى تتصل بهذه النواحي يصطنع أسلوب السخرية اللاذع الذى يناسب الموضوع ، ويكون أدعى إلى القبول فى النفس ، وأوقع من مجرد الفكرى العادى ، لإثارته الحواس والمشاعر بجوار إثارته للعقل .

ويعود من بعد ذلك ليرسم الخطة التى تعالج ظواهر النقص المختلفة التى تظهر بين وقت وآخر فى دولنا الاجتماعى . ولا يكون ذلك عنده إلا بالتسك بالمثل العليا : وعلى ذلك « ينبغى أن يؤمن الناس بألا أحداً أعظم ولا

أقوى من الرجل الذى لا يشتري بمال ولا بجاه . نعم إن من ملك قلبا حارا
ولسانا حرا ، ولم يكن له فى زينة الحياة مطمع ، فهو وحده الذى يستطيع
أن يسود العالم . » ^(١) وهو يرى أن الدرس الأخلاقى قد يأتى من صاحب
السلطان كما يأتى من الفرد المحكوم . فالمهم فى الأمر أن يوجد المثل الحى
للأخلاق الحرة النزيه العظيمة فى أى طبقة وأى بيئة وأى زمان . إن
أقرب السبل إلى إعادة حسن الظن بالأخلاق والمثل العليا هو وجود المثل
بالفعل . هو ظهور رجل واحد ومثل حى نراه بأعيننا ونسمع صوته بأذاننا
ونلسه بأيدينا ونتبعه بأفئدتنا . ولكن . . . هل كل مجتمع قادر على إخراج
مثل هؤلاء الرجال أو أن أولئك لا يظهرون إلا فى مجتمع يهيئهم للظهور ؟ ^(٢)
ونحن نجيب عن سؤاله هذا بأن المجتمع المصرى قادر تماما على إخراج
المصلحين الاجتماعيين . فإن أمثال هؤلاء لا يظهرون عادة فى البيئات المكتملة
النمو ، بل هم يظهرون فى المجتمعات الناقصة التى تدفعهم دفعا إلى المجاهرة
بآرائهم للقضاء على المفسد الملمة . ومجتمعنا الراهن لا يعدم المجاهرين بملاء
فيهم بالإصلاح التطورى . ولكن المناداة بالأصلاح ليست عنده كل شىء .
بل هى فى رأى ضعيفة الأثر فى مجتمع انجرف أهله كلهم فى تيار الأنانية
والمصالح الشخصية . إن الدواء الفعال عنده ليس فى إيجاد برامج الإصلاح .
بل فى وجود الرجل الصالح . وهو يردد ذلك فى أكثر من موضع . مؤكداً
أن المبادئ الصالحة لا تصنع دائماً الرجال الصالحين ، ولكن الرجال الصالحين
يضعون المبادئ الصالحة بمجرد سلوكهم فى الحياة والمجتمع .

(١) تحت شمس الفكر ص ١٠٤

(٢) تحت شمس الفكر ص ١٠٦

وهو في بحثه عن الرجال الصالحين يعود فيرى الطريقة لخلقهم هي في
تهيئة المجتمع الذي يكفل لهم الظهور .

والحل عنده موكل بتغيير عام يحدث في محيط المجتمع
المصرى من جميع نواحيه السياسية والخلقية والدينية . فلا المدرسة ولا
البيت يستطيعان الآن شيئا كبيرا في إصلاح ما فسد . «لأن الفساد جاء من
عاصفة جائحة لمبادئ شوهت وأسى فهمها ، هبت فجأة على هذا البلد فتلبته
شر منقلب . فالأمر أجل وأخطر من أن يعالج بالعلاجات الموضعية ، إنما
هي عاصفة أخرى جائحة من المبادئ الصحيحة السليمة ينبغي أن تهب فتقيم
ما وقع وترم ما انهدم . ولكن المعضلة هي : كيف ومتى تأتي العاصفة المباركة ؟
في رأي أنها لا تأتي بغير إعداد واستعداد كما جاءت العاصفة الأولى الهوجاء .
فلقد دخلت تلك العاصفة خلصة من النافذة التي فتحتها جهاد طويل مجيد
وحركة وطنية مجيدة . وهنا يأتي دور البيت والمدرسة في الإعداد والاستعداد .
عليهما يقع عبء تفهيم الشباب أن هذه الحال التي هم عليها لا يمكن أن تدوم
وأن عليهم أن يستعدوا لإصلاح ما بأنفسهم . على البيت والمدرسة الإكثار
من تذكير الشباب بالمثل العليا القويمة والمبادئ الخلقية السليمة وأن يعرضوا
عليه عيوبه وعيوب الجيل وأمراض العصر . وأن يقنعاه بأنه هو المنوط
به يوما إصلاح كل هذا الفساد وإحداث الثورة المباركة التي تقيم الوطن
على أقدام الصحة والقوة والنظام . » (١)

رائد الحوار

لطالما أجهد نفسه في بدء تكوينه باحثاً عن الأسلوب الذي ينبغي له اتخاذه. كان في هذا الطور يجد عقبته في عجزه عن إخراج ما في نفسه كما تصوّره أول مرة فإن الفكرة كانت تنبت في نفسه، وتنمو وتمتد، وتتخذ شكلاً منتظماً في رأسه، بل إنه لينفق الأيام في بناء الصور في مخيلته، وجمع الملاحظات واستخلاص التجارب واستصفاء التأمّلات، ولا يبقى إلا أن يمسك بالقلم ليضع على الورق كل هذه الحياة الزاخرة النابضة. فاذا «شيء آخر باهت بارد كالجثمان الهامد هو الذي يخرج».

عمل واحد استطاع أن ينجو من هذه النهاية: عمل دفعته نفسه إلى كتابته دون أن يستجمع في رأسه شيئاً من تفاصيله أو يستحضر في خاطره دقائق وأجزاء... «ومن الغريب أن الأشخاص تكونت وتلونت وكأنها تخلق وجودها بذاتها». وسارت القصة^(١) بأشخاصها وبه إلى حيث لا يدري. إلى أن أخبرته الأشخاص أنفسهم بالنهاية المحتومة التي لا بد لها أن تنتهي إليها.

وكانت بداية نجاحها لها ما بعدها. إذ أن (أهل الكهف) التي قامت على الحوار ونجحت في إرشاده إلى حقيقة قيمة فنه، قد دفعته إلى الماضي في هذا

(١) أهل الكهف. كتبت عام ١٩٢٨ وطُبعت لأول مرة عام ١٩٣٣.

الطريق ، ففرض الحوار فرضا على أدبنا العربي ، وهو لون لم يكن معروفا فيه بالمعنى الذى حمله إياه ولا بالمقاصد التى استخدمه من أجلها

على ان الواقع إنه كان قد مارس الحوار قبل نزوحه إلى أوربا ، فى شكل تمثيلات أخرجه بعض المسارح . ومن أجلها انصرف عن المقالة السياسية (المحترمة) وقتئذ فى نظر أهل بلاده . ومن بعد رجوعه إلى مصر أدرك أن الوقت والجهد اللذين بذلتهما فى تخطيط محاوراته لم ينفقا عبثا ، وآمن بأن الحوار أسلوبه الذى يتحرق بحشائه . وانتهى به الامر إلى إدخال الحوار (قالبا) أدبيا وبابا مرعيا فى الأدب العربى . فأن ما أراد من جعل الحوار ذا قيمة أدبية يقرأ لذاته على أنه أدب وفكر ، قد استقر فى انبجائها المعاصر استقرارا نهائيا .

ويرجع إيمانه بالحوار كإطار لإظهار صورته وأفكاره ، إلى أنه يحب بطبعه الفكرة المركزة والبناء السليم فى كل خلق . ولاشئ يرضى غريزته الفنية مثل التركيز فى البناء سواء كان هذا البناء لهيكل آدمى أو فنى . وقوة البناء لا تتمثل فنيا أبرز تمثيل الا فى فن العمارة وفى السمفونية الموسيقية وفى القصة التمثيلية . ومن هنا كان إثاره للقصة التمثيلية ألزم وأقرب إلى دقة البناء من القصة المروية . حوارته إذن هو قالبه الفنى الذى يميزه عن عدائه من كتابنا الكبار . والحوار ليس عملا سهلا بل هو عملية انتقاء وانتقاء واختيار ، ووضع أكثر الافكار والصور فى أقل السطور .

إنه ما يزهده فى شئ زهده فى الفن السهل الذى لا يحتاج إلى مؤونة وتجربة وغوص ودرس وما يبجل شيئا تبجيله للفن الذى يصمد كالصخرة فى طريق

الفنان ، فما يزال به يعالجه بالصبر الطويل والكد المضى حتى يفجر منه الماء السلسيل . فالكاتب الحقيقي في نظره هو ذلك الذى يخلق عالما زائرا بالاشخاص والصور التى تحيا وتسعى وتشعر وتفكر دون أن يحتاج فى إنشاء هذا العالم إلى غير قلمه وحده .

عام

وقد تبين له بعد طول الجرى والجهد أن الذى عنده ما يقوله للناس يخرج بكل بساطة مألوفة من كنوز . ولا يحفل بمراسيم التقديم ، ولا يتكلف الوضع المتحذلق فى الإعطاء ، إلا ذلك الذى يعطى شيئا تافها . « ما الأسلوب إلا تلك الآلة الصناعية التى تتوسل بها للوصول إلى الحقيقة ولكن ما أروع الحقيقة لو تفجرت وحدها من أعماق القلب الصادق فى كلمات بسيطة ! لهذا كان الأسلوب المتكلف أحيانا كل أدب أولئك الذين لا يحملون فى جعبتهم ما ينفع الناس . . . فالبلاغة الحقيقية هى الفكرة النبيلة فى الثوب البسيط . هى التواضع

الأسلوب

فى الزى والتسامى فى الفكر . » (١)

من أجل هذا نجد فى كثير من مسرحياته الاجتماعية ميل إلى استعمال اللغة البسيطة المتداولة لتكون الصورة التى يحاول رسمها أقرب إلى الحقيقة ، دون أن يخشى منها على الأفكار التى يستهدفها حين يضع هذه الروايات . وهذا أيضا اتجاه جديد فى الأدب العربى . فقد اعتدنا أن يكون مقياس البلاغة لدى القدماء الصياغة اللفظية فى المحل الأول . ومن هنا كانت الصياغة اللفظية إلى عهد قريبة وربما إلى اليوم أيضا فنا يطلب لذاته ، ولا يرمى إلى هدف أبعد من ذاته . أما الحكيم فيعترف أنه منذ

اللفظ

أمسك بالقلم ماحول قط أن ينشئ لنفسه أسلوباً جميلاً يتميز بجزالة اللفظ وحسن الديباجة ، مما يستهوى القارىء بحلاوة الجرس والرنين .

الأسلوب
ما خطر له أن يمارس الفن للفن في الأسلوب . ولكنه في مواضع كثيرة أراد أن يتخذ من الأسلوب خادماً لأهداف أخرى غير مجرد الإمتاع . هذه الأهداف كما ظهرت واضحة للناس كانت قومية شعبية وإصلاحية في (عودة الروح) وفي (عصفور من الشرق) وفي (يوميات نائب في الأرياف) وفي (مسرح المجتمع) . وكانت مذهبية متصلة بمصير الإنسان كما لم تظهر بوضوح لكل الناس خصوصاً في مصر في (أهل الكهف) و (شهر زاد) و (سليمان الحكيم) و (بجماليون) و (أوديب) ، أى في مسرحياته الفلسفية .

9
ذلك أنه إلى جانب إثارته للحوار في مؤلفاته . نجده يصنع المسرحية الشرقية بطلاء جديد من فلسفة جديدة وتفكير جديد . فالتمثيل حينئذ أو (التشخيص) كان بمعزل عن الأدب إذ الرواية التمثيلية . قبل أن يتناولها فن حوارها كانت شيئاً يمثل ولا يقرأ . وربما كان للأدب عذره حينئذ في تجاهلها . فان التمثيلية لدينا كانت مما لا يمكن قراءته لمجرد قيامها على الحوادث المثيرة والحركات والمفاجآت . فلم تعرف بعد الحوار القائم على دعائم الفكر والأدب والفلسفة ، وهو ما أدخله هو فيها .

وللحوار عند الحكيم اعتبار خاص . لأسباب خاصة : ذلك أن الحوار بما فيه من إيجاز وتركيز هو القالب الأدبي القريب إلى سليقته المحببة للنظام .

فالفن عنده نظام. والنظام عنده هو الاقتصاد أى البيان بلا زيادة ولا نقصان. والرأى عنده أن الحوار ملكة، يرجع إلى صفته الضرورية له. وهى التركيز والإيجاز والإشارة التى تفصح عن الطبائع، واللمحة التى توضح المواقف. وهذه الصفة لا تناسب كل الناس ولا تلاحق كل الأدباء.

وعظمة المسرحية لديه هى فى القوة الخفية السحرية التى ترغم النظارة على أن ينفذوا إلى أعماق الأسرار البشرية، ويحيطوا بأسمى المعانى وأجمل المشاعر، ويستمتعوا بأبهج الطرائف وأظرف المباهج من خلال كلمات تلقى لا أكثر ولا أقل. وهو يستلهم مسرحياته فى وقائعها إما من حوادث المجتمع التى كثيرا ما عرضت له، أو من الأساطير القديمة. ويحاول فى هذه الأخيرة أن يلبسها صياغة جديدة يضمنها مثاليته كشرقى، وكانسان عاش فى القرن العشرين، أى أنه يحاول فيها معالجة التيارات التى يراها توجه البشرية منذ الأزل (١).

فالإنسان عنده ليس مجرد (جسم) يتحرك فى محيط بيئته المادية بمرادى ذلك، بل هو كائن يعبر عن نفسه بآلياته النفسية. ولكن الإنسان أيضاً فوق ذلك، وأكثر من ذلك (عقل) يتحرك فى عوالم فكرية. وهو (روح) يسبح فى معانٍ شعرية. وهو مبادئ فلسفية ودينية واجتماعية تصطرع وتتطور. فالعناية بحياة هذا الجزء الأعلى من الإنسان هى التى تجعل من القصة أدبا رفيعا يقرأ فى كل زمان ومكان دون التفات إلى قومية.

(١) أخذنا اتجاه الحكيم فى تفسيره للكيان البشرى من (فن الأدب)، مع قليل من التصرف.

أو شعوبية . ولعل الحكيم بابر ازه الناحية الفلسفية في مسرحياته قد عبر
عن وجهة نظر الشرق العربي في كثير من المسائل التي تعنى البشرية . وهو وإن
يكن عالمي النظرة إلا أنه لم يتجرد من طابع قوميته وشرقيته في اتجاه التفكير
ومما دعا الغربيين ولا شك إلى تذوق بعض مؤلفات الحكيم والتعقيب
عليها ، أنه قد تناول فيها قضية العصر ، وقضية الإنسانية الخالدة في قيمها العليا
وفقا لمبادئه ومعتقداته ، وهو في نظره إليها يقف على الجانب الآخر
بالنسبة للفيلسوف الأوروبي المعاصر جان پول سارتر زعيم المذهب
الوجودي .

فالمذهب الوجودي على إطلاقه يؤمن بحق الفرد أو حق الشخصية
الإنسانية ، وينادي بمقاومة طغيان الجماعة وإنكار المصطلحات الشائعة التي
تتحكم في آراء الناس بغير تمحيص . ودعاة هذا المذهب جميعا يلقون القفاز
في وجه طغيان الجماعة ، ويقدمون ضمير الفرد في مسائل الاعتقاد والتفكير ،
سواء تمثل هذا الطغيان في صورة السلطة الدينية أو السلطة الفكرية أو أية
سلطة من السلطات تحاول أن تطبع الضمائر بطابع واحد لا محل فيه لحرية
التصرف وتفاوت الآحاد في الحس والوجدان . (١)

وجان پول سارتر — زعيم هذا المذهب في فرنسا — ملحد منكر
للإلهية وجميع الأديان . ومن هنا لا شيء يقف في طريق دعوته لتحرير
الإنسان المعاصر من كل سلطة ، وإعلانه أن الإنسان حر بطبيعته وسليقته ،

وأنه لا يستطيع الخلاص من حرته دون أن يتخلص من وجوده .
فالإنسان — عنده — حر في إرادته ومسئوليته أمام الله الذي لا يملك معه
حلا ولا عقدا لأنه هو نفسه إله الوجود . ولذلك يعطى سائر الإنسان
ما شاء من العقيدة والخلق والسلوك ، ثم لا يعرف لهذا الاختيار حدا على
الإطلاق ولو ذهب إلى أبعد الحدود ، لأن التخرج من قطع الصلة بين الفرد
والجماعة يرجع إلى الفرد نفسه . فإن شاء قطع الصلة بينه وبين من حوله ،
وقبل أن يتعرض لجريرة عمله ، وإن شاء قنع بالمداراة وطلب الحرية في
الانطواء على ضميره ، وهو في الحالتين صاحب الحق الأول والآخر في
حرية الاختيار . (١)

وليس هنا محل مناقشة هذا المذهب الممغن في الفردية الذي يشبهه من
بعض نواحيه تعاليم السوفسطائيين وهو في الواقع بمثابة رد فعل للمحاولات
التي فرضت على الفرد للحد من حرته سواء على يد المذاهب الفاشية أم
الشيوعية ، التي تضع المجتمع في المحل الأول دون كبير وزن لقيمة الأفراد
بالنسبة إلى المجموع .

وهذا الموقف من قضية العصر قد وقفه الحكيم وتأمله ، وعرض فيه
نظرته باعتباره شرقيا مسلما ولا يمكن في إطار النظرة الإسلامية للإنسانية
أن يكون الإنسان إله العالم ، أو أنه وحده في الوجود أو أنه مطلق الحرية .
إنما هو يعيش ويريد ويكافح داخل إطار الإرادة الإلهية التي تتجلى للإنسان
أحيانا في صور غير منظورة من عوائق وقيود ، عليه أن يكافح لاجتيازها

والتغلب عليها . ولذلك تتضح في مسرحيات الحكيم فكرة عجز الإنسان أمام مصيره . فمصير الإنسان مرتبط بعنده دائماً بجهاذه أمام القوى غير المنظورة . فهو بشعوره الداخلي أنه ليس وحده في الكون ، وأنه ليس حراً ، أدرك أنه سجين تلك القوة الخفية التي تسمى (الزمن) وأن مصيره مرتبط بالزمن ارتباطاً وثيقاً ، وأنه ليس حراً في التخلص من زمنه ، وأنه ليس في مقدوره أن يعيش طليقاً في كل جو وكل زمن . وهذا هو محور مسرحية (أهل الكهف) (١) .

بناها على سورة الكهف التي وردت في القرآن . وهي تروى قصة أولئك الأفراد الذين هربوا بدينهم المسيحي الجديد من اضطهاد الامبراطور دقلديانوس ، ولجئوا إلى كهف ، ثم غابوا في سبات عميق هم وكلبهم . والرواية مبنية على (بعث) أهل الكهف في الدنيا ، وتناول غربتهم الزمنية . عاشوا حقيقة من جديد ، ولكن في غير عصرهم ، وإن يكونوا قد رجعوا إلى نفس الأرض التي كانوا يعيشون عليها من قبل . وتتجمع العقدة في الرواية حول بعث المشاعر في حب قديم . فان (ميشيلينا) قبل أن يأوى إلى الكهف كان يحب (پريسكا) ابنة دقلديانوس التي اعتنقت المسيحية سرا . وعندما (بعث) وجد سميتها وشقيقاتها ابنة الملك المسيحي . وحاول — وهو الذي اعتبره الناس قديساً — أن يحيي حبه القديم . ولكن هيهات ! كان الحاجز يقف في طريقه ممثلاً في قيود الزمن . ومالت إليه الأميرة في آخر (١) وهو كذلك واضح في مسرحية (لو عرف الشباب) في كتاب (مسرح المجتمع)

الأمر — بعد فوات الأوان — وكانت قبل ذلك تراه صورة مجسمة للماضي السحيق الذى يفصل بينهما . وظل (ميشيلينا) يتشبث بالحياة بالرغم من أن زملاءه قد تاقوا إلى كهفهم وسَمُوا الحياة التى لا طعم لها فى مجتمع ينكر (إنسانيتهم) .

ولا ينكر توفيق الحكيم أنه قد استلهم مصر القديمة فى تصويره (للبعث) كما جاء فى قصة (أهل الكهف) . وقد حمّله على كتابتها أنه كان يرغب فى كتابة مأساة مصرية على أساس مصرى . وإذا كانت المأساة الاغريقية تتخذ من القدر أساسا لها ، فإن أساس المأساة المصرية فى رأيه هو الزمن . وفى كلا الأساسين يتجاوب الصراع بين العاملين — أحدهما أو كلاهما — وبين الإنسان فلقد سيطر الموت والزمن والقلب والخلود على حياة مصر القديمة التى لم تكن تفكر إلا فى الخلوص إلى حياة أخرى ، وهذا هو منبع فلسفتها الدينية . دائما نجد فيها رهبة الموت وجلاله ، وذلك الأمل فى انتصار الروح على الفناء والزمان ، وذلك الانتصار انما هو البعث : بعث لا الى عالم غيبى آخر لاصلة له بهذه الأرض ، وإنما بعث إلى هذا العالم ، وهذه الأرض بزمانها ومكانها . هذا الأيمان بالبعث المادى على هذه الأرض ذاتها ليس إلا السلاح القوي فى تلك المبارزة الهائلة بين الزمن والإنسان .

وكذلك يرتبط مصير الإنسان بالأرض تمام الارتباط . فالقوة الخفية الأخرى التى تسمى (المكان) — المكان المادى والمعنوى — لها قبضتها القوية على كيان الإنسان . وهذا هو محور مسرحية (شهر زاد) . فقد أراد الإنسان فى هذه القصة أن يتخلص من الأرض ليبلغ السماء ، فظل معلقا

بين السماء والأرض . وفي هذه المسرحية نجد فكرة تطور الإنسان في دائرة مفرغة : كدائرة الأجرام العظمى والصغرى في أفلاكها السماوية والذرية ؛ إنها صورة أخرى للمبارزة بين الإنسان والمكان .

سم شهر يار ليالى (حمام الدم) ، واللذة المادية التى غرق فيها دهرنا ، فتاق إلى الروح ... إلى عالم آخر — لا يوجد فى الأرض وعالمها المحدود — يتجرد فيه من قيود المكان والجسد ، ويحقق فيه حياة روحية خالصة . ولكن كيف يصل إليه بوسائله المحدودة التى تربطه بالعالم الأرضى ؟ إنه الصراع اللانهاى بين العنصرين الموجودين فىنا : المادة والروح ، ركزه الحكيم لافى المجتمع بأشخاصه وطوائفه ، بل فى النفس البشرية الكامنة فى فرد واحد . وهنا تتمثل الفكرة الفلسفية الثنائية كما قال بها هيجل حين حاول أن يدل على أن لكل شئ نقيضا من جنسه كامنا فيه ، يتصارع ، ويخرج من ثناياه نتاج جديد له نقيضه .

والمادة والروح موجودتان فى النفس ، كما يوجد من ورأهما الشر والخير . وقد يتغلب كل من العاملين على الآخر ولكنه لا يقضى عليه نهائيا ، فالشرير كثيرا ما تلذعه وخزات الضمير فتكسر من شرته قبل أن يقرم بعمل الشر مرة أخرى . والنفس تتقلب بين العاملين تبعا لمحيطاتها ، ولا تفتأ تنتقل من أحدهما إلى الآخر انتقالا طوريا إبان أزماتها . ولا شئ أقوى وأوقع من انقلاب المادى إلى روحى ، والعكس . وأصعب الأمرين هو الانتقال من المادة إلى الروح . فان المادة تنسى الإنسان التأمل فيما عداها . لأنها استغراق وغرق . تطوى الانسان بكل تفكيره ومشاعره فى تيار مطالبتها المألحة .

أما الروح المجردة، أو إن شئت. الدقة النزوع إلى الحياة.
الروحانية الخالصة ومصارعة النوازع البشرية. فهي الشقاء والضيق بقيود
الزمان والمكان، والتطلع إلى المثل الأعلى لحرية لا تبلغها معها أو تينامن قوة.
هي القلق والبرم والضيق. بقيودنا الأرضية أو الآدمية... ولا يدخل
في هذه الحالة أولئك النساك تجردوا للروح لا بدافع القلق والثورة على
القيود كما فعل "شريار بل بدافع الأذعان والانسحاب والتهجد الديني
وعبثا تحاول شهرزاد أن ترد زوجها إلى عالمه الأرضي باثارة كيانه
المادى كرجل، وقد خافت أن ينفلت من جاذبية الأرض إلى سماء لم يكتب
لآدمي مثله أن يصل إليها. ولكنها لم تكن تستطيع أن تقف في وجه دورة
التطور المحتومة.

على أنه من الواضح أن (شهرزاد) في المسرحية — كما قال عنها
جورج ليكونت — "تبدو في جوهرها الخالص، عاطلة من لآلاء عقودها،
ونضار براقعها... وماذا يهم اسمها ومـلاحمها؟ ليكن لها وجه المرأة،
أو وجه الحظ، أو وجه العلم، أو وجه المجد، فلن تكون شيئا آخر غير القمة
البراقة التي تتجه إليها وتهالك عليها مطامع الإنسان، والواحة التي تلهب ظمأه
دائما ولا تطفئه أبداً، والموضع الذي لا ظل للرحمة فيه، حيث يتلاقى أمله
الرغيب ووهمه المتبدد، وكلاهما وفي الآخر ذلك الوفاء الفاجع المحزن!،
فقد غدت سرّاً عميقاً يحار المحيطون بها في فك طلاسمه. هي رمز للكون
وأسراره. هي رمز للطبيعة في مواجهتها للإنسان.

كذلك نجد مصير الإنسان عند توفيق الحكيم يهدداً أشد تهديد بقوة
أشد خطراً من الزمان والمكان، هي تلك التي تتفجر من صميم قدرته كما
تتفجر النواة من الذرة. وهذا هو محور مسرحية (سليمان الحكيم).
وقد قصد من هذه القصة تصوير ذلك الصراع الدائر الآن على مسرح
العالم الذي كاد ميزانه يميل بنا إلى الهاوية. (فالصياد) قد أطلق الجنى من
مقمه، فسيطر الجنى على مصير من أطلقه، وكاد يهلكه. وهكذا العقل
البشرى في الوقت الحاضر: سار مع قصوره الذاتى إلى النهاية، لاشئ يفقده
ثقله فى إمكانياته. ووصلنا بامكانيات هذا العقل (الجنى) إلى مراحل جنونية من
المكتشفات العلمية، حتى أمكن إطلاق قوى الذرة التي قيل عنها فى الكتب
القديمة أنها لا تنقسم ولا تستحيل. ولكن أترانا أفلحنا فى توجيه هذه الطاقة
الجديدة إلى ما يفيد البشرية؟ أترانا استأديناها فى التغلب على عاملى الزمان والمكان،
وفى العمل على رفاهية السواد الفقير من سكان العالم؟ للأسف لم يحدث ذلك بل
الذى حدث بالفعل أننا قد استخدمنا الطاقة الجديدة فى صنع قنابل مهلكة قد
تقضى على الحضارة الإنسانية وترجع بنا إلى العصر الحجري كما قال مرة
العلامة اينشتاين صاحب نظرية النسبية. يقول الحكيم «أزمة الإنسانية الآن وفى
كل زمان هى أنها تتقدم فى وسائل قدرتها أسرع مما تتقدم فى وسائل حكمتها...
إن المخالب فى الإنسان الأول قد تطورت إلى أسلحة حجرية... ثم إلى
سيف ثم إلى مدفع، ثم إلى قنبلة ذرية... ولكن وسائل تحكمه فى غرائزه
لم تتطور إلى حد يمكنها، فى كل الأحيان، من كبح جماح القدرة المطلقة!...

لذلك كان لابد دائما من وقوع كارثة ... أو حدوث إخفاق ... حتى يظن
العالم آخر الأمر إلى ضرورة الحكمة ... ولكن المشكلة هي أنه قلما يظن ...
وإن فطن فقلما يستطيع الوقوف في الوقت المناسب .. إن منظر الإنسان في هذا
القرن العشرين ليدعو إلى العجب . فالصورة الحقيقية له هي صورة مخلوق:
له ذكاء العالم وضمير القرصان وغريزة الحيوان . لسنا نطمع ، طبعاً ... وقد
منحنا هذا الكيان الآدمي بخيره وشره .. في أن تقتل (الجنى) الذي فينا ..
بذكائه وعبقريته وطموحه وسلطته ... ولكننا نأمل أبداً في أن نقيم من
نفوسنا الخيرة سدا يقف في وجه إغرائه كلها طغى وأراد أن يجمع بنا
إلى الهلاك . (١)

على أن شعور الحكيم بعجز الإنسان أمام القوى المؤثرة في مصيره
ليس مؤداه التشاؤم . كما أنه لا يرى في النظريات الأوربية القائلة بحرية
الإنسان أمام مصيره ما يدعو إلى التفاؤل . فالإنسان إله الحر مع ما ركب
فيه من الغرائز قد طغى وانقلب محارباً لنفسه هادماً لذاته . في حين أن
فكرة الشعور بالقوى الأخرى التي تواجه الإنسان وتؤثر في إرادته
وحديثه ، تدفع به في نهاية الأمر إلى أن يحشد غرائز حربه وكفاحه لا ضد
نفسه ، بل ضد هذه العوائق المستترة وهذه القوى الخفية . فالشعور يعجز
الإنسان أمام مصيره — عنده — حافز إلى الكفاح لا التخاذل . هكذا كافح
أهل الكهف ضد الزمن ، وحاولت شهرزاد أن ترد الصواب إلى زوجها
فتعيد إليه إيمانه ببشريته ، وجاهد سليمان الحكيم ضد إغراء القدرة التي

كادت تخرس صوت الحكمة. وهكذا كان الإنسان يجاهد دائماً ضد العوائق الخفية التي شعر بتأثيرها في حريته وإرادته ومصيره وهو جهاد لا من نوع هدام كجهاد الإنسان المتأله ضد نفسه، بل جهاد بناء كجهاد المصريين القدماء، ضد الزمن وعوامل فناءه، باقامة الهياكل الكبرى واختراع التخنيط والأصباغ. وكجهاد أهل الدين السماوي في الشرق ضد قلق النفس وغرائز الإنسان بتثبيت العقائد ووضع الشرائع. ومهما يكن من عجز الإنسان وإخفاقه أمام مصيره، فإن العبرة هي بجهاده المنتج الشريف. وذلك ما أرادته القدرة الإلهية للإنسان: فهي قد ألفت في سبيله الأحجار ليجاهد في تحطيمها، والعوائق ليكافح في إزالتها. وليس المهم للإنسان أن ينجح، بل المهم أن يكدح. وليس الشرف للإنسان في أن يقول إني حر. بل في أن يقول إني سجين، ولكني أجاهد للخلاص» (١)

وفكرة الحكيم هذه مرحلة وسطى بين فكرة سارتر: حرية الإنسان وألوهيته، وبين عنصر الميثولوجيا الاغريقية: عبودية الانسان وعجزه التام أمام مصيره المحفوظ منذ الأزل في لوح (القدر).

وما كان إلا غريق القدماء يعرفون عالماً آخر أو بعثاً. فقد كانت آلهتهم صو تعيش ترمح فوق جبل أولمب، وتسم بطبائع وميول ونوازع لا تختلف كثيراً عن طبائع وميول ونوازع البشر. فهم يحبون ويكرهون ويتقنون، وقد يقسون على الأفراد دون جريرة، فيرسمون مصير بعضهم قبل أن يولدوا. وهذا واضح جلي في قصة (أوديب).

حكمت الآلهة على أوديب — قبل أن يولد — بأن يقتل أباه ويتزوج أمه . وشاعت النبوءة منذ ميلاده في قصر أبيه ملك طيبة ، ورسمت مصيره حتى تحققت بالفعل ، وأوديب في كل ذلك آلة مسيرة في يد القدر يلعب بها كيف يشاء طبقا لارادة الآلهة ولنصوص ، النبوءة . وعلى هذا الأساس سارت مسرحية سوفوكليس ، ولم يستطع من حاول مجاراته أن يهرب من سلطان النبوءة // وهذا هو سر إخفاق من نازلوا المأساة الأولى ، فان التصرف في النبوءة ، عقدة المسرحية ، يباعد بين الأصل والصورة .

وقد أبصر الحكيم في مأساة (أوديب) صراعا ليس فقط بين الإنسان والقدر كما رأى الإغريق ومن نحائهم ، بل أبصر عين الصراع الخفي الذي أوضحه في (أهل الكهف) ^(١) . فهو صراع لم يكن فقط بين الإنسان والزمن ، بل بين الواقع والحقيقة . فقد تحاب أوديب وأمّه جوكاستا ، ثم أفسد علمهما بحقيقة أحدهما بالنسبة إلى الآخر ما كان بينهما ، فكان اتحار جوكاستا وسمل أوديب لعينه .

ولم يستطع الحكيم في منازلته لسوفوكليس أن يقبل جبروت «الآلهة» ولا النبوءة . فهو شرقي عربي مسلم يرفض فكرة الله المدبر لأذى الإنسان تديرا سابقا دون مقتض أو جريرة . رأى في القصة تحديا من الإنسان للإله أو القوى الخفية . وأظهر هذا التحدي على نحو واضح ، ولكنه أبرز

(١) مثلت «أهل الكهف» عام ١٩٣٥ حيث افتتحت بها الفرقة القومية موسما الأول عند تأسيسها . ومما يكن من أمر استقبال جمهورنا المسرحي لها وقتئذ فان هذه المسرحية وأمثالها لم تزل سابقة لجيلها .

كذلك في عين الوقت عواقب هذا التطاول لكي يوفق بين جوهر المأساة وبين عقيدته التي ما شعرت قط أن الإنسان وحده في هذا الكون . فالموجب لكارثة أوديب عنده لا يمكن أن يكون حقد الآلهة المنطوى على الكيد والشر . ولا يمكن كذلك أن يكون قد أراد إسقاط المسألة لتعارضها مع عقيدته . ولكنه جعل الموجب للكارثة طبيعه أوديب ذاتها — طبيعته المحبة للبحث في أصول الأشياء ، الممعنة في الجرى خلف الحقيقة . تلك الحقيقة التي لا ينبغي لبشر أن يكشفها ، وإلا رأى نهايته ووجد حتفه .

وعلى هذا الأساس نجد الحكيم يفسر مشكلة الثواب والعقاب . ليس عنده حتم خالص ، ولا إرادة خالصة — بل هناك توفيق في هذه المشكلة المستعصية : فهناك قوانين أزلية تدبر الكون ككل ، وتوضع للخارجين على القانون بغض النظر عن ذواتهم أو أشخاصهم — كالمصيدة التي توضع للفأر الذي يعيش فسادا . . . فأى فأر عابث معرض للوقوع في المصيدة . « فحقى في عالم الغازات يوجد شيء من الحرية والانفلات خارج نطاق قوانينها الصارمة . ذلك أن وجود القانون يستلزم وجود الخارج على القانون . . . وهذا يستلزم أيضا نوعا من العقاب . . ليس في اختلال النتائج وحدها ، بل في إعادة الخلل إلى النظام ورد المتمردين إلى موضعه . » (١)

وقد علق ألويس دي مارينياك ، المتخصص السويسري في آداب اللغة اليونانية ، وفي تراجيديا أوديب بالذات ومؤلف البحث المستفيض عن الشعراء والنثرين الذين تناولوا مأساة (أوديب) على مر القرون —

علق على (أوديب) الحكيم بقوله: «أما توفيق الحكيم فهو في أرايته وسخريته وبقطة رشده، يخلع عن الابطال الأقدمين تلك العظمة التي أضفتها عليهم الأساطير ليعيرهم عظمة غيرها — عظمة تصدر عن فضيلتهم البشرية دون سواها. فلم يلق (أوديب) الحكيم ذلك الإسفنكس^(١) الذي تتحدث عنه الاسطورة. بل قنع المسافر البطل بأن صرع أسدا كان يجول في سفح جبل ستيرون ويفتك بأهل البلاد... ولن يصبح أوديب عظيما إلا بمسلكه ونوع موقفه أمام الكارثة... وليكن الخرافة أقوى من المؤلف الذي يستخدمها.. فلم يستطع أن يمنع مسألة القدر المحتوم من معاودة الظهور في أكثر من موضع. فلقد بلغ من قوة هذه الخرافة أنها لاتدع لمن أراد استخدامها إلا النذر اليسير من حرية التصرف.»^(٢)

على أن الحكيم إذا كان لم يتغلب على عرامة الاسطورة، فانه قد استطاع أن يطبعها بطابعه الفكري الخاص. كما أنه قد استطاع أيضا أن يدخل الاسطورة الإغريقية في أساليب تفكيرنا الشرقى الذي لم يعرفها من قبل، ولم يخضعها كما أخضعها هوفلسفته الشرقية الخاصة.

وأعاد الحكيم أيضا صياغة أسطورة بجماليون، وأراد فيها أن يعرض للصراع بين الإنسان وبين قواه الداخلية العليا أي ملكاته، كذلك بينه وبين

(١) مارد خرافي فتك بأهل (طيبة) اليونانية: وكان لديه لغز يتصدى له الناس. فلما أن يحل الشخص اللغز فينهار الإسفنكس أو يعجز الناس فيفتك هو بهم. ووهبت جوكاستا نفسها — بعد أن مات أبو أوديب — لمن يحل اللغز. وحل أوديب اللغز وتزوج أمه — دون أن يعرف أنها منجبه، فصدقت النبوءة !

(٢) الملك أوديب ص ٢٦١

القوى غير المنظورة . الخارجة عنه والاقوى منه .

فبجماليون عبقرى الفن والإبداع ، المحروم من الحب ، يصنع
بيديه من العاج امرأة يقع في حبها ويناجيها ويدلها ، وبذلك يخلق لنفسه
وبنفسه الحب الذى لم تهبه الآلهة إياه . وبعد أن يكتمل عمله الفنى يجده ناقص
(الروح) فيطلبها من الآلهة ، فتبها له فينوس ، إلهة الحب والجمال . وعندئذ
يفطن إلى أن هذه الروح التى وهبت لتمثاله الخالد ، قد دمغته بطابع البشرية
بما فيها من تغير وفناء .

لقد تهاوى عمله الفنى بمجرد ديبب الروح الأدمية فيه لقد كان قبل
ذلك خلقا كاملا غير قابل للنقصان أما الآن فهو كيان يتحلل في كل يوم . وتبين
له في الحال ان الروح الفنية اقوى وابقى من الروح الأدمية .

وسرعان ما دب السأم في نفس بجماليون ، وقر حبه لجلالاتها ، وعاد
يحن إلى فنه . وقد شعر بأنه قد فقد أثره الرائع ، وعاد ينعى على
الآلهة أخذها تمثاله الباقي وإعطاءه زوجة فانية ! انتهى اللا محدود حين أصبح
محدودا . انتهى الخالد ، وبات مهدداً — فى وضعه الجديد أن يتطرق
إليه الفناء . وهنا طلب بجماليون من الآلهة أن ترد إليه عمله الفنى كما كان . .
وعندما تلبى الآلهة رغبة بجماليون مرة أخرى ، ترد إليه تمثاله
القديم ، تعود دورة التطور مرة أخرى بالفنان ، فينظر إلى التمثال من خلال
ذكرىات الزوج . فيحن الى المرأة والحياة بدفئهما وفنائهما ، ويرم بالفن بما
فيه من جمود وخلود .

وهذه المسرحية - التي تكرر التطور في حلقة مفرغة كما ظهر في مسرحية (شهر زاد) - تعالج صراع الإنسان لامتاع الزمن أو المكان، ولكن مع نفسه وملكاته. فلا جمال الحياة يشبعه، ولا كمال الفن يكفيه... ولن يفتر عن ملاحقة الجمال والكمال في شتى الأوضاع والصور ومختلف الأشكال والأحوال. لا ينطفىء له ظمأ إلا بانطفاء الشعاع الأخير من نفسه القلقة الحائرة.

وهو في إبان هذا القلق الداخلي ينظر إلى الكون من وجهة نظره. يريد أن يملأ عليه إرادته، ويكافح القدر الذي لا يعطيه طلبته، حتى إذا ما أعطى ما يشاء رجع يحن إلى الماضي، ثم يعود يتطلع مرة أخرى إلى المستقبل. إنها دودة الشك والقلق: منها تصدر العبقرية، ومنها تنبع التعاسة... هي صراع مع الملكات والغرائز، أو القوى الداخلية التي هي النفس. ثم هي صراع مع المصائر والأقدار أو القوى الخارجية التي هي الآلهة... صراع طويل يصمد له الإنسان ويشقى. ولكنه الصراع الذي بنى الحضارة، وشيد الفن، وألهب الفكر.... في طريق المثل الأعلى..

مختارات من ماثوراته

✓ (4) في الانسانية المثل العليا

● لا خير في فكرة لم يتجرد لها صاحبها ، ولم يجعلها رداءه وكفنه ، بها يعيش وفيها يموت .

● النصر الحقيقي هو لذلك الذي يستطيع أن يسير بالبشرية ولو خطوة ، ويسعد هاول لحظة . . إن كلمة بنى أوترنيمه شاعر أو تغريدة موسيقى ، لأنفع للبشر من صيحات الظفر وطبول النصر في أكبر معركة حرية .

● بغير المثل الأعلى تحيون كالديدان في الحمأة يأكل بعضهم بعضا .

● الروح لا العلم مصدر الخلود .

● المسيح ومحمد كل منهما كان يجاهد وحده ضد وطنه وزمانه ، لينذر فيهما المثل الأعلى للإنسانى فالخلود هو لمن يعمل لخير الإنسانية كافة ، ولرفعة الجنس البشرى كله .

● إني لأطيق أحدا يحقر الأفكار والكلمات . إن الكلمات هي التي شيدت العالم الكلمات الصادقة والأفكار العالية والمبادئ العظيمة هي وحدها التي قادت الإنسان في كل أطوار وجوده وبنت الأمم والشعوب في كل مراحل تاريخها . . ما من حركة وطنية أو قومية أو إنسانية قامت أول أمرها على شيء غير المبادئ والكلمات .

● الحرية هي الهواء الضروري لسعة الصدر والعقل . الحرية هي الدواء الحقيقي للأمة المريضة .

● عندما يظهر الذهب بريقه ورنينه فاعلم أن المبادئ في خطر . . .
لأن هذا البريق سوف يذيب المبادئ بأشعته الساحرة . . وهذا الرنين
سوف يصم الآذان بجرسه الفاتن عن سماع صوت المبادئ هو عدو
المبادئ لأنه هو ذاته ينقلب إلى مبدأ . . مبدأ خطر طاغ متسأله يهزأ بكل
المبادئ المتجردة السامية . وعندما يتحكم يصبح هو وحده المقياس الفعلي
لقيم الرجال .

● لولا شرف الجهاد لهدى الله الناس بغير أنبياء مجاهدين . ولجعل
الانبياء ينجحون في هداية الناس من أول كلمة بدون كفاح .

● ليس المهم للإنسان أن ينجح بل المهم أن يكبح

● الرق لم يذهب من الوجود . لقد اتخذ شكلا آخر يناسب هذا
العصر . . لكل عصر رقه وعبيده .

● إن الأنسانية لا تتغير . إنما الذى يتغير فيها هى الاثواب .

● ان الحضارات لا تحتفى بل تتقل .

● كل فضل الانسان على غيره من المخلوقات انه يرتفع الى غايات عليا
بأشياء معنوية لا تتصل مباشرة بطعامه وشرابه .

● إن تناج الأذهان لا يقل عن تناج الألبان ثروة للأمة . ولكن

الاقتصاد القومى فى الأمم المتأخرة لا يدخل فى حسابه غير الثروة المادية . .

● الإنسان الحى حقا هو ذلك الكائن الذى تيقظت فيه كل حاسة

وملكة ، مادية وروحية ، وتكونت وتهذبت حتى استطاعت أن تتخير له

خير ما فى الوجود من عناصر السعادة الروحية والمادية معاً .

● إن المعرفة البشرية لا تدخل إلينا من باب العقل وحده، إنما تتسرب إلينا من كل مسام جلدنا وجسدنا وذهننا وروحنا .

● تحت شمس الفكر رأيت النور وعرفت الحب... ولكنني احترقت.

● لا تنس أنهم خلقوا من طين الأرض... ولكن أعينهم تتطلع إلى السماء .

● الفاصل بين الإنسان والحيوان هو الخيال... الحلم المثالي هو العالم العلوى الذى لا يدخله حيوان .

● إن عالم الواقع لا يكفي وحده لحياة البشر . إنه أضيق من أن يتسع لحياة إنسانية كاملة .

● إن الغرب يستكشف الأرض . والشرق يستكشف السماء .

● إننا أهل الأرض لنشغل أحيانا بما نصادف من فوز أو متعة فنقع فى غشية من غرورنا ، ننسى معها أنفسنا وننسى السماء وأهلها ، عندذاك تتركنا السماء فى حقارتنا الأرضية ووحدتنا الباردة ، فلا نستيقظ ونرى ماصرنا إليه إلا يوم نحتاج إلى حرارة العزاء وعناية السماء .

● كلما همت روح الإنسان بالتحليق نحو الأعلى كبيلها أكاذيب الإنسان وأنزلها إلى التراب... كل شقاء إنسانية أنها لا تستطيع أن تترك شيئا عظيما ذا قداسة بغير أن تلبسه أحيانا ثيابا مبتذلة مضحكة من حمقها وزيفها وغرورها .

● إن أوربا اليوم تعاني أزمة شديدة . لاشك أنها أخطر أزمة مرت بها . ذلك أنها تنبعت إلى أن مازعمته « روحاً » فى كيانها قد أنكشف لها .

وظهرت من تحت ريش الطيور السماوية أنياب الخنازير البرية .

● إن كل وسائل العلم حتى الآن هي أعضاؤنا وعقولنا وحواسنا .
وهي ليس لها من الأحاطة والدقة ما يقتنع غير القليل من ظواهر الطبيعة
والكون ، مهما تعاونها الآلات والعدسات . ومادامت تلك هي كل ادواتنا
فلن ندرك من أسرار الكون إلا اليسير .

● إننا لانستطيع أن نخرج من أنفسنا لنفهم ونرى شيئا غير أنفسنا .
● لقد همت بالنور وعشت حول النور حتى أحسست أن جسمي
يرق وأن لنفسي أجنحة كأجنحة الفراش .

● إن تمسك الناس بالوهم الذي اعتادوه لأفوى من كل حقيقة .
● إن صاحب الحياة الهنيئة لا يدونها بل يحياها .
● إن الحقيقة عملة لا تجوز في مملكة الأحلام .
● لقد هبط آدم الأرض فغمره نعيم وجحيم من نوع آخر ومادة
أخرى لا يعرفها العالم العلوى .

● الحلم فنان حاذق يأتي أحيانا بالمعجزات في رؤوس النائمين .
● إن الموت لا يجل ويعظم حقا إلا في نظر من يموت ؛ في تلك اللحظة
التي يشعر فيها المحتضر أنه مفارق هذه الدار التي عرفها وعرف أهلها إلى مكان
مجهول ، فراقا لارجعة بعده

● من السهل أن نخرج من الحياة كلها ، وليس من السهل أن نخرج من
الإطار الذي أرغمنا الظروف على اتخاذ مكاننا فيه والتحرك في حدوده .

- حب المعرفة هو شباب العقل، هو الشباب الأبدى . هو السموي
الإنسانى الذى سجدت له الملائكة إلا إبليس .
- أزمة الإنسان اليوم هى حربه ضد نفسه . فهو ليس له قريع آخر
غير نفسه لأنه لم يعد فى غروره يرى سوى حريته المطلقة . لم يعد يرى
القوى الأخرى غير المنظورة التى تحرك وجوده وتلعب بمصيره ، وتستوجب
نضاله ، وتتطلب تفكيره
- الإنسان هو الإنسان . ولكنه فى كل مرة يولد إنما يولد جديدا ...
لا يكرر بالضبط إنسانا غيره . . ولا يشابه بالضبط شخصا سواه .
- لكل إنسان بين جنبيه بئر عميقة . . . ولقد رأيت من الناس من
يلقى فى بئره دلو من ذهب ، فلا يجد الدلو فى القرار غير نضوب وجفاف . . .
ورأيت منهم من يلقى فى بئره دلو من ذكاء ، فلا يجد الدلو فى القرار غير حصي
مرصع وحجارة مرصوفة .
- لو استطاع إنسان أن يشمل بنظرته الأمس واليوم والغد ، وأن
يتتبع حادثا واحدا أو رجلا بعينه فى مراحل عبر الزمن ، لرأى العجب .
- إن مانسميه الحظ ليس إلا وقوف نظرنا المحدود على وضع من
الأوضاع فى وقت من الأوقات . وإن فرحنا أو بكنا ، لهذا الحظ ليس سوى
قلة صبرنا على انتظار البقية .
- إن الإنسان الذى أعطى الحكمة ، ليس فى حقيقة الأمر إلا ذلك
الذى أعطى العين التى ترى الأشياء فى جملتها لا فى جزء منها ، وفى تعاقبها
لا فى وقوفها .

- من يحتل أرضك يحتل فكرك ، ومن يسلب بلدك يسلب روحك .
- شمس الغرب غاربة لا محالة .
- إن استطعت بالمال أن تشتري مظهر الحضارة ، فلن تستطيع أن تشتري روح الحضارة .
- روح الحضارة في أمة يـبـزغ مشاعر واحساسات ، قبل أن يظهر وسائل وماديات .
- الحلم لا يمكن أن يحتفظ بصفاته الخيالية إلا وقتا قصيرا . . . فاذا طال أمده انقلب إلى واقع .
- أيها الإنسان . . . أين تهرب ؟ إن ما تفر منه تحمله في دمك ! حينما ذهبت وتوالت خرجت من صلبك حضارة مضيئة مدمرة كالشهب . . . هـكذا خلقت ! . . . خلقتك الله حقا من تراب الأرض الطيبة . . . ولكن مسك بعدئذ إبليس ، فصرت شهابا ، لا يهدأ حتى يبرق ثم يحرق نفسه ، وهو يهوى في أجواز الزمان . .
- القدر يعرف ما هو صانع بنا في نهاية الأمر ، ولكنه يترك لنا حرية الكلام والحركة التي تقتضيها دوافعنا الداخلية .
- المشهور شخص أضاع حرية الانغمار في بحر الجماهير .
- إن الناس لا يمكن أن يتصوروا إلا ما كان على صورتهم .
- الأجيال تـمـاسـك في الأمم القوية كما تـمـاسـك حلقات السلسلة الفـقـيـة الأـجـسام الصحيحة .

- في الشباب يثمر الخيال والشعور والعاطفة . وفي السكولة ينضج العقل والحكمة والتجارب . فلكل فصل من فصول العمر فأكته .
- المطلوب لتكوين شخصية النشء ليس حرية العمل بل حرية التفكير .
- الويل لأنسان الغد ! ماقيمة الأنسان وقد جردته الآلة من مقوماته ؟
- هي التي تفكر له وتبصر له وتسمع له وتقرأ له وتحسب له . . قل إذن إن الآلة ستصبح لها خصائص الأنسان ، وإن الأنسان ستصبح له روح الآلة !
- واهما لمن حكم عليه بالسير في الظلام !
- إن الغضب علامة العجز .
- الطبيعة كلها ليست سوى سجان صامت يضيق علينا الخناق .
- أود أن أنسى هذا اللحم ذا الدود . وأنطلق أنطلق . . إلى حيث لا حدود .
- ما أنا إلا ماء . هل لي وجود حقيقي خارج ما يحتوي جسد من زمان ومكان ! حتى الحركة والتغير والانتقال إن هي إلا تغيير إناء بعد إناء . ومتى كان في تغيير الإناء . تحرير للماء !
- كل شيء في الكون يدور . . نسأل الطبيعة عن سرها فتجيبنا باللف والدوران !
- النهاية تتلوها البداية في قانون الأبدية والدوران .
- إني أضيق ذرعا بهذا المكان . بهذا الجثمان . الجثمان خلق المكان كما خلق الماء الإناء .
- ما أعجب تركيب الإنسان ! فينا القوة أحيانا إلى حد العظمة والتضحية .

وفينا الضعف أحيانا إلى حد الحقارة والآنانية .

● إن مجرد الحياة لا قيمة لها . إن الحياة المطلقة المجردة عن كل ماضٍ وعن كل صلة وعن كل سبب لهى أقل من العدم ، بل ليس هناك عدم . ما العدم إلا حياة مطلقة .

● إن أية حياة منحة . وأثنى منحة تعطى مخلوقا هى الحياة .

● الزمن يحملنا ... كي يمحونا بعد ذلك ... إلا من استحق الذكر فيبقى الى الغد فى ذاكرته . . أى التاريخ .

● إني أؤمن ببشرية الإنسان ، وأرى عظمتة فى أنه بشر ، أى كائن له ضعفه ونقصه وعجزه وأخطاؤه ، ولكنه يوحى إليه من أعلى .

● إن كثيرا من الانقلابات التاريخية والمحن البشرية يرجع فى أغلب الأحيان إلى إرادة رأس كبير أو تمرد بصيرة عمياء .

● فى كل ذرة أو خلية ناموسها . وإلى جانب هذا الناموس شرك يقع فيها الخارج عايه ، لترده إلى مكانه من النظام العام ...

● إن الصدق يخيف للنفوس الضعيفة .

● هى القوة . . . تعمى بصائرنا أحيانا عن رؤية عجزنا الآدمى ، وتنسينا ما منحنا من حكمة . . . وتزين لنا المضى فى كفاح لا خير فيه ففسير بغرورنا تحت نظرات الرب الساخرة .

● آه . . لو كان فى يدى التجرد من طيعتى !

- لا يطفى مصباح العقل غير عواصف النفس .
- صوت الحق .. لا يسمع أحيانا بالآذن ولا بالرأس ... ولكن بالقلب !
- ما أتعس هذا الإنسان الذى جعل ينقب عن حقيقته فى الأعماق ،
فما انبثق له غير نبع شقائه .
- إن الإنسان هو الإنسان لا بد له من أن يعمل ويريد
ويسير بما تدفعه إليه ملكاته وخيالاته ، دون أن تتبين نبصيرته
القاصرة ، إرادته من إرادة الله . .
- الإنسان يضع مبادئه فى نطاق زمنه المحدود . . ولكن الطبيعة
تضع مبادئها فى نطاق زمنها غير المحدود . وهنا سر الخلاف بين
الطبيعة والإنسان .
- مامن رأى واحد يمكن أن يسود هذه الأرض .
- كل منا يخدع نفسه أو نفسه هى التى تخدعه لأنه مامن
إنسان هبط فى قاع نفسه ليرى ما فيها . . . النفس الانسانية ! هذا البحر
ذو الوجه الصافى الذى تختلط فى جوفه الرمال بالأعشاب والصخور بالأسماك
واللآلىء بالعقارب .
- إن دماء البعض علاج للبعض .
- هناك أشياء لا يستطيع الإنسان أن يقدم عنها جوابا مقنعا . لأن
طبيعتها تأبى التعليل المعقول . من ذلك مسائل العواطف والغرائز .
- ما أكثر الذين تسقط على رؤوسهم السعادة وهم نائمون ، فاذا
استيقظوا هربوا

● يكفى دائماً أن يوجد مجنون واحد بأخلاص ليستطيع أن يحن
الآخرين بسهولة .

● كل إنسان يؤمن بما يرضى أنانيته ... كل شيء صالح ، وكل شيء
مصلح ، وكل شيء فيه صلاح وإصلاح مادام فى مصلحتنا .

● هنالك طراز من الجياع يقضون حياتهم كلها بين الموائد ، ولا يملئون
أبداً ما يشعرون به دائماً من فراغ .

● يا للشباب الذى لا يبصر إلا بالعاطفة ... ويا للعاطفة التى لا تبصر
أبعد من حاضرها .

● إن إثبات العقل لمن أشق الأمور .. إذ كلما أمعنت فى إثبات عقلك ،
انقسم الناس رحمة بجنونك .

✓ في الفن والأدب

- الفن هو المؤدب الأول في طفولة الإنسانية .
- كثيرا ما يخطر بنفسى دون أن أدرك السبب هذا الخاطر الخرافى : وهو أنه لو فرض وجود عالم آخر أرقى وراء هذه الدنيا المنظورة ، فأرن الحيط العنكبوتى الدقيق الذى يمكن ان يصلنا بهذ العالم النورانى هو : الموسيقى .
- ينتهوفن يتكلم ولكنه لا يتكلم بلغة الناس . إنه يقيم من الأصوات عالما لا تدخله ولا تسكنه غير الأرواح الخيرة المهذبة .
- إن السعادة التى تلزم للفنانين ، ليقوموا بالأعمال الكبار ينبغى أن تكون بمقدار مقدار صغير ثمين مثل الرادىوم . فاذا انغمروا فى حوض من هذه المادة السحرية ، فانها تنقلب فى أنظارهم ماء قراحا لا فعل له ولا أثر .
- إنى لا أقدس شيئا ولا أحترم أحدا ولا أنظر بعين الجسد إلا الى أمر واحد : الفكر لأنه هو النور اللامع فى قمة هرم ذى أركان أربعة : الجمال والخير والحق والحرية . هذا الهرم هو وحده الشئ الثابت فى وجودى .
- الأدب ويدا يمناه الخلق الذى ينتج ويتكر . ويسراه النقد الذى ينظم ويفسر .

- الخلق ليس معناه أن تخرج من العدم وجودا . إنما الخلق في الأدب وفي الفن — وربما في كل شيء — هو أن تنفخ روحا جديداً في مادة موجودة .
- الفن هو السكسوة المتجددة لكعبة لا تتغير .
- إن الفنان أو الأديب يظل يبحث عن أسلوبه إلى أن يجده ، فيصبح بعد ذلك سجينه إلى الأبد .
- لا يستطيع الفنان أن يعيش طويلاً إلا فيما خلقه هو بنفسه من داخل نفسه .
- الدين والأدب كلاهما يضيء من مشكاة واحدة . . . ففي الدين والفن السماء هي المنبع .
- لو علم رجل الأدب خطر مهمته ، لفكر دهرًا قبل أن يخط سطرًا .
- ما أعجب العلم إذا تراءى لعين الأديب .
- إذا أبصرت شعاعاً فاعلم أن وراءه كوكبا . . . وإذا رأيت أدباً فاعلم أن وراءه حضارة . . . وما من خطر يهدد الشعاع إلا انفجار الكوكب .
- الثواب في الفن كما في الدين على قدر المشقة .
- فاكهة الذهن والقلب تبقى دائماً نضرة . . . مادامت شجرة الحياة الإنسانية باقية باسقة .
- الفن أداة من أدوات خلق الذاتية .
- الأديب الحق هو الذي يجعلك تدرك عمقا جديدا كليا أعدت مطالعته .
- رسالة الأدب كغيرها من الرسالات الكبرى التي تبغى السمو بالبشرية ، لا تبلغ الأسماع إلا بعد جهد وصراع .

- الشعر ليس تصويراً مباشراً للحياة . . . بل هو انعكاس الحياة على نفس الشاعر .
- الحقيقة الفنية . والحقيقة الدينية ، تستطيعان الحياة على الرغم من ظهور الحقيقة العلمية .
- الشعر فن إيجاز وإيجاء .
- الأدب هو ذلك الشيء الذى يتصل اتصالاً مباشراً بالجواهر الثابتة فى كيان الإنسان .
- خلق الفنان لخلق . ومهما تكن الأسباب التى ينتحلها أو تنتحل له تبريراً لعمله ، فإن السبب الأكبر هو أن قبساً حل فيه من أشعة الخالق الأعظم .
- العمل الفنى هو وحده الذى يخلق فوق الأجيال حراً سليماً بعيداً عن أيدي العابثين وأفواه الناهشين .
- إن المجتمع يخطئ دائماً فهم الفنان كلما أراد أن يطبق عليه قانوناً ثابتاً .
- إن الممتازين من الرجال لهم دائماً هذه الصفة : أنهم يخلقون وبين ضلوعهم قلوب لا تشيخ .
- مهمة الأدب هي أن يعين الناس على تفهم حكمة الخلق وروح الوجود . . . وإفهام البشر أن السعادة عمل وكفاح وتقدم وتطور .
- إن الفنان لا يصبر طويلاً على الإنتاج لنفسه . . . إنه زهرة تعيش بأشعة من نظرات الناس .

- إن محاكاة القديم في الفن محاكاة كاملة عمل يكاد يكون مستحيلاً ...
- كما لو كنا نريد بعنب جديد أن نصنع للتو خمرة معتقة ...
- إن كثير من الكلمات الجوفاء تندس أحياناً كالغوغاء في مواكب المعاني!
- ربما كان الجزء الحقيقي للمفكر هو لذة التفكير ذاتها ، لذة الكشف عن تلك الأسرار التي تزرعها نفسها ونفس الإنسانية .
- كل مواجهة للجماهير ، حتى في أنبل أوضاعها ، تحتاج إلى نوع من البراعة يتنزه عنه المفكر الرفيع .
- يحسن القدر أحياناً إلى شاعر العاطفة بالموت في شرح الشباب ، كما يحسن إلى الزهرة بالقطف قبل أن تذبل على الشجر .
- عمل الأديب أو المفكر هو خلق وتكوين أولئك الذين سيكونون قادة للجماهير .
- الفنان ليس مصلحاً . ولكنه صانع المصلح .
- الممتاز في رياضة البدن لا يمثل إلا نفسه وجسمه . أما الممتاز في العلم أو الأدب أو الفن فهو يمثل خلاصة التاريخ الثقافي لبلده الذي قد تمتد جذوره إلى مئات السنين . لهذا كان من الصعب على أمة أن تدرب وتظهر عالماً أو فناناً بالسرعة التي تدرب بها وتظهر اللاعب الرياضي .
- الفنان الحق يخلق بدافع واحد هو تحقيق ذاته ، أي متابعة التطورات والتغيرات التي تحدثها ملكاته .
- الخلود هو نتيجة لا غاية عند الطبيعة والفنان .

● ان المعرفة الإنسانية من فن وأدب وعلم لتخلد نفسها أحيانا على قمة غرور الإنسان .

● الطابع الخاص في الفن والحضارة شيء لا يتم بالإرادة ، بل هي ثمرة لا بد لها من النضج الطبيعي .

●  الفكر أقوى من المفكرين . ولهذا يخلد ويخلدهم ، على الرغم مما قد يشوبهم من ضعف الشخصية والأخلاق

● إن الاستقلال في الفكر لا يبدأ إلا عندما تعرف وتعترف أن تفكيرك كان بذرة في ثمرة الغير .

● فرق بين من يجعل فنه كالعروس يطلب لها المهر الغالي ، وبين من يجعل فنه كالعاهر تأتي له بالمال من أى طريق .

● الكتاب كالمراة . هي تعكس صورة الوجه وهو يعكس صورة الفكر .

● المهن الراقية بغير رقي التكوين تهبط في الحال إلى مستوى المهن اليدوية .

● ان غيطان النفوس تحتاج الى وقت طويل حتى تصل إلى اغوارها . مياه الافكار وتهدأ أديمها للنبت والثمار .

● القائلون بإمكان رقي أمة بغير أدب وفن يقدمون للعالم ، لو صح زعمهم ، أعجب معجزة : وهي ان في إمكان الإنسان أن يرقى بغير شعور وتفكير .

● المسئولون عن تأخر الشرق هم القائلون إن الأدب والفن من المسائل السكالية ، فهم يطلبون الى الشرق أن يعمل ، وفاتهم ان الإنسان يجب أن يشعر أولا ، فيفكر ، ثم يعمل .

١٥ في الدين والأخلاق

● إن مخالفة النظام الطبيعي للإنسان والأشياء مخالفة لله . وكل دين يقف في وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله ، لأن الله لا يناقض نفسه .

● ما يأمر به الله هو أن تعيش الأحياء طبقاً لقوانين الحياة التي وضعها لها ، وأن تجاهد في سبيل هذه الحياة ، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأها لها من مناعة طبيعية أو مناعة اكتسابية .

● ما الرسول في الحقيقة غير الرسالة والرسالة لا تموت .

● إن روح المسيحية هي المحبة والمثل الأعلى ، وروح الإسلام الإيمان والنظام .

● أول من يتبع الأديان هم العبيد والأرقاء والفقراء والضعفاء . ذلك أن طبقة الراضين الموسرين الأقوياء ليست في حاجة إلى أن تتبع أحدا .

● إن المعجزة الحقيقية التي جاء بها أنبياء الشرق هي أنهم قدموا للناس عالماً آخر عامراً بسكان من ملائكة ذوات أجنحة جميلة يضاء . زاهراً بجنان فيها أنهار من التبر وأشجار من الزمرد ، راعداً بنيران تتأجج بلهب زرقاء كالسنة الأبالة الهائلة كالحفافيش في هذا العالم استطاعت البشرية أن تعيش حياة أغنى وأحفل من حياة الواقع .

- السماء . الجنة . الجحيم . جرد عالمنا الأرضي من هذه الكلمات الثلاث . . . تنهار في الحال أروع آثارنا الفنية .
- كل ما استطعنا أن نخلق من جمال إنما صنع تحت نور شعاع من أشعة السماء
- ما أقوى الإنسان الذي يعتقد حقاً أن له صديقاً ونصيراً من أهل السماء .
- إن الإخلاص للدين والفن يستوجب التجرد .
- ما أسعد أولئك المؤمنين الذين يعتقدون ان الموت مرحلة إلى حياة أخرى مجيدة جميلة ! ما أسعد أولئك الذين يرون الحياة الإنسانية جذيرة أن تشغل الكون دائماً هكذا طول الخلود
- عرفنا الله قبل أن نعرف البشر ، وعرفنا الصفاء قبل ان نعرف الشر .
- لا يخشى على الحكمة من شيء غير القدرة .
- ربما كانت الحكمة الحقيقية هي في أن يعرف الإنسان كيف يحكم قدرته .
- كلما أسرفنا في الانخداع بملكاتنا جعلتنا السماء موضعاً للسخرية .
- اليوم الذي يمتلئ فيه الحكيم شعوراً بحكمته هو أقرب الأيام إلى ساعة انكشاف الرداء عن حمقه المضحك .
- يجب أن تكون فينا زهرة لم ترو ، وجوع لم يشبع ، ورغبة لم تمل ، وصيحة لم تسمع ، لنكون جديرين بفهم القلب الانساني .
- لا شك أن المسئول عن انهيار مملكة السماء هم رجال الدين أنفسهم بتكالبهم على مملكة الأرض .

● إن أعظم معجزة في الكون للخالق الأعظم جل شأنه هي « شخصية الإنسان » ... ملايين الملايين من البشر تتوالد وتتعاقب ، فلا تطابق شخصية منها شخصية أخرى تمام الانطباق ، في الأجسام والمشاعر والعقلية والروح والذوق والطبع ... كل شخص يظهر في الأرض جديد ، جسدة تنشق معه وتختفي معه ، إلى أبد الآبدين .

● كل معجزات الأرض قليل إلى جانب المعجزة العظمى وهي : الديانة التي يفجرها الله من نوره ، فيتبعها أفواج البشر مبهورين .. شاعرين أنها سكبت في شرايينهم ، ومزجت بدمائهم إلى يوم الدين .

● ما من شيء يرينا دائماً قدرة الله إلا عجزنا البشرى

● غوغاء الفكر وكفرة الدين ... أولئك هم الذين يتعبون الأنبياء والفنانين .

● إن إرادة الله لها من المرامي ما لا يتسع له ذهن إنسان .. فلن يكون إذن لمخلوق سلطان كامل على الغيب ، ولا قدرة كاملة على التنبؤ .

● السماء لا تهمس بكلامها لكل الآذان .. إنها أحفظ لسرها مما نظن ...

ولغتها لا يفهمها كل إنسان .. لغتنا نحن البشر هي القول ، أما لغة الله فهي الفعل .

● تتفتح بصائرنا أحياناً من خلال الأخطاء ، كما تتفتح الأزهار النابتة

في الأوحال .

● لو أنك أردت أن تدنو من الله فأشعلت له في نفسك مسرجة ، لأضاءت

لك في أحلك لياليك ... ولكنك آثرت أن توقد في عقلك مصابيح ... انطفأت

كلها عند عصفه من عصف الريح .

● إن الغاية النبيلة ليست من الضعة حتى تقبل أن يوصل إليها بطريق غير نبيل . إن الطريق إلى الشرف هو الشرف نفسه . والخير هو ذاته الطريقة والغاية . . لأنه شعاع من أشعة الله . . والله تعالى غاية لا بد أن يكون طريقها نورا وخبرا .

● الإيمان لا يعرف الزمن . انه انبثاق من أعماق القلب في لحظة فيكشف ظلمات الآزال والاباد .

● إن الخليقة الإلهية لا يمكن أن يكون فيها حشو أو لغو . هي هندسة دقيقة كاملة لا فضول فيها .

● إذا كنت أر تدى العفة طمعا في تصفيق الناس فأنا دجال ... وإذا كنت أطرحها عند جحود الناس فأنا مزعزع العقيدة .

● ليس من السهل أن نعرف حقيقة الأشياء والأشخاص . . أهى في تلك الضلالة التى نراها عليها من العلو ؟ أم في تلك الضخامة التى نراها عليها من السفلى ! .

● انى لا أفرق بين القدر والنظام ، لأن تدير الله هو تنظيمه ، وما نسميه قدره هو فى الحقيقة قانونه .

● إن اليوم الذى نستطيع فيه أن نجعل الناس يشعرون بوجود

سعادة خفية ليس مبعثها المادة ، وأن نجعل المجتمع يشعر بوجود فرد أو جماعة يستمدون هيبه وقوة وجلالا من مجرد قيم معنوية عارية عن

المال والجاه ، لهُ اليوم الذى يمكن فيه اقناع الناس بسلطان الروح

● لاشئ يقتل البائع الطامع غير المشتري القانع .

● الإنسان هو المخلوق الوحيد بين جميع الكائنات الذى نيط به ربط الأرض بالسماء .

● مامن شخص يستطيع أن يقتل الله فى صدره ، دون أن يقتل الإنسان فيه .

● إن خطوط العقول والقلوب مختلفة فى الناس اختلاف الخطوط فى بصمات الأصابع .

● هناك حياة تشبه الرسم الكاريكاتورى فيها من عدم التناسق ما يكشف لنا غرابتها وعجائب القدر ، كما أن هناك حياة متناسقة مرتبة لا تثير عجباً ولا تخفى معنى .

● من الناس من يعيشون حاضرمهم فى الأحلام فاذا جاء الغد صاروا حقائق ، ومن الناس من يعيشون حاضرمهم فى الحقائق فاذا جاء الغد صاروا أشباحاً .

في السياسة



- إن الحكم المثالي ليس في المبادئ المثالية ، بل في الأشخاص المثاليين .
- النظام البرلماني في مصر هو الاداة الصالحة لتخريج الحكم غير الصالحين .

● ما أكثر أولئك الأبطال الذين يبدأون بالعذاب والتضحية والتشريد ، وينتهون إلى اللذائذ والآرائك والعيش الرغيد . وما أندر أولئك الأبطال الذين يعيشون بفكرتهم العليا مشردين ويموتون بها محشورين في زمرة المساكين .

- القوة هي رداء الحق ، وإذا أراد الحق أن يزدري فليظهر عارياً بغير رداء .

- إن كل مشروع نافع في الشرق لا يفسده غير التنافس على الرياسة .
- شجرة الحكم مامن فاكهة ألد منها . من ذاقها مرة فلن ينساها أبد الدهر .

- قاتل الله البراعة السياسية . إنها ككل براعة تخلط الحق بالباطل ، والماس بالزجاج . . .

- الحكم هو الذي يمنح القوة للمبادئ . . خصوصاً في الشرق . . إن المبادئ في بلادنا بغير حكم كالقفاز بغير أصابع . .

- كل أغلبية مطلقة تؤدي إلى الانزلاق نحو الطغيان... حتى الديمقراطية تحمل ضدها بين ثناياها وسمها في طياتها.
- ما السياسة إلا براعة تفسير المقاصد ومهارة فهم المرامي تبعا لمقتضى الحال.
- إن الشعب لا يريحه أحيانا أن تكون له إرادة... وهو يوم يراها في يده، يسرع فيعطيا لرجل أو لحزب، كأنما هو يضيق بحملها، ويود التخلص منها وطرح عبثها.
- الشعب الساذج يطعم بالأوهام البراقة لا بالحقائق الواقعة...
- ليس في مقدور شعب أن يتحرر سريعا من سحر صورة ألفها...
- ما اضعف المبادئ أمام الأشخاص. إن أكبر خطر على المبادئ هم الأشخاص. والمصلحة الشخصية هي دائما الصخرة التي تتحطم عليها أقوى المبادئ.
- إن صاحب السلطة بسهولة يصدق الملق... وبسرعة ينسى النفاق.
- رجال الأعمال هم أولئك الذين يأخذون المال من الأعمال، ويتركون للآخرين الأعمال بغير المال.
- المال هو أرخص وسيلة لشراء قلوب الناس، وألسنتهم وحناجرهم وعقورهم، وهذه القلوب والألسنة والحناجر والعقول هي رصيد كل من يطمع في السلطان والنفوذ.
- الكلب على مروضته محتقر لأنه قبل أن يضع اصداقائه في عنقه قيذاً، وإن كان من ذهب.

● الرجل العظيم هو ذلك الذى يستطيع أن يجعل من أحلامه حقائق يعيشها الناس .

● فكرة الغد الأفضل هى السراب الضرورى للإنسان ، كى يعيش مواصلا السير فى صحراء الحياة البعيدة الآفاق ...

● ان العالم الافضل موزع فى الواقع على مراحل حياتنا الفردية والاجتماعية .

● الأم الناشئة مثل الطفل يشغلها الحاضر عن النظر إلى المستقبل ، فالحاضر هو الزمن الوحيد الذى يغرق فيه الأطفال .

● انه لمن اصعب الأمور ان يحكم الانسان حكما عادلا على تصرفات غيره ، لأن ذلك يستوجب خيالا وحكمة وحنكة ليضع نفسه فى عين ظروفه ، ويشعر بعين احساسه ، ويرى بعين إدراكه ...

● ان روح الانصاف والعدل لا يمكن أن تحل فى جسد من الكبرياء والجهل .

● كل جيل يحكم على غيره بمقاييس الحلقة التى هوفىها ، دون أن يفتن الى اختلاف الجو عند الآخر . فمن يعيش فى حرارة الشباب يظن كل شىء حارا ، ومن يعيش فى برودة الشيخوخة يظن كل شىء بارداً . ولو انصف الجميع لا عترفوا بأن الحياة مناطق وأجواء .

● إذا عجز العقل عن حل مشكلة فلن يحلها غير الجنون .

● فى الدهر ساعة يرفرف فيها السلام وتكتمل الصحة ويصفو المزاج .. تلك هى ساعة الاتزان فى التفكير والتوازن فى القوى .

● الاعتدال... مامن صيدلية بشرية تستطيع أن تصنع هذا الدواء العجيب في كل حين .

العامود الفقري لشخصية الانسان هو سلسلة تجاربه في الحياة .
● كلمة الغرور هي الكفن الذى نطوى فيه قفزة الجرى . إذا سقط .
● الغرور بالنسبة الى العظيم فى الأفراد والدول ليس فى كل الأحوال مسألة خلقية ، بل مسألة حسائية ، الخطأ فيها يودى بالنجاح إلى المقبرة .
● مامن أحد يعرف سر التاريخ ، حتى ولا التاريخ نفسه . إنه يتذكر ما يريد وقتما يريد ، وهو مضطجع يدخن الأعوام .

● فليهضم الغد كل ما ابتلع من أمس . يكفى أن دمه الجديد انما يجرى بشمرات ذلك الأمس المهضوم .

● يكفى أن ينهض رجل واحد .. رجل روح حقيقى ليقلب التاريخ .
● لا بد فى جهاز الإنسانية من « محركات » الغريزة الى جانب « فرامل » الحكمة .

● إن الامة الحية يحيا فيها أمواتها ، والامة الميتة يموت فيها أحيائها .
● لو تأملنا الطبائع وتبعنا وسائل نشاطها ، لتبين لنا أحيانا انها تكاد تنقسم إلى فئتين : فئة تمتطى الحظ . وفئة تمتطى الصبر ... وراكب الحظ يريد أن يمحو الزمن الذى بينه وبين الهدف .. وراكب الصبر يريد أن يستخدم الزمن فى الوصول إلى الهدف .

● يحتقر الناس الكلب بالرغم من وفائه وأماته لانه لا يفرسهم .

● باتساع نطاق الحضارة أصبح من الضروري للناس أن يتخذوا لهم آراء في شئون السياسة والفكر والمجتمع كما يتخذون لهم سيارات وثلجات وأجهزة للأذاعة ..

● أغلب الناس لا يستطيعون أن يصنعوا لأنفسهم رأيا ، فهم يستسهلون ارتداء الآراء التي تصنع لهم صنعا .

● هناك ساسة مثاليون وساسة عمليون ، كما ان هناك علماء حيوان وحواة أفاعي .

● في الثورات السياسية والاجتماعية ، الفرنسي فلاح والانجليزى ملاح .. الأول يقلب الأرض بالمحراث ، والثاني يتحول مع الريح .

● الويل لأمة سلط على شعبها الأعداء الثلاثة . الجهل والفقر والمرض ، وعلى قادتها الأعداء الثلاثة : الرجل والبطر والغرض .

العظمة من البساطة بحيث يدعيها كل انسان ، ومن الارتفاع بحيث لا يبلغها كل انسان .

● بعض الناس يحبون الصداقة التي تسرهم أكثر من الصداقة التي يحترمونها .

● إثنان لهما أن يحضرا الولايم بغير دعوة : الطفيلون والعظماء : الاولون لأنهم أحقر من أن يدعوا ، والآخرون لأنهم أكبر من أن يدعوا .

أحمد عبد الرحمن مصطفى

في المرأة والحب

- القلب هو نافورة الأحلام والآمال .
- قلب الإنسان هو الأعجوبة العظمى ... أعجوبة موصدة أمام القدرة وأمام الحكمة .
- إن الحب لقدر صارم ... يضرب ضربته حيث يريد هو ، لا حيث نريد نحن .
- الصداقة هي الوجه الآخر غير البراق للحب ، ولكنه الوجه الذي لا يصداً أبداً .
- حرارة القلوب تذيب الذنوب .
- الحب يبتلع كل شيء حتى الصداقة وحتى الإيمان ... لأنه هو نفسه إيمان أقوى من كل إيمان .
- ليس للنساء عمل في الحياة غير الحب . أما حياة الرجال فهي حب العمل .. ومن هنا نشأ سوء التفاهم ! ..
- المرأة لا تستطيع أن تخلص لمبدأ ، ولكنها تستطيع أن تخلص لشخص .
- إذا تمكن حلم من امرأة وتمكنت هي منه ، فلن تتركه حتى يغدو حقيقة .
- المرأة لا تبصر في المرأة وجهها الحقيقي ، بل الوجه الذي تريده هي لنفسها

- الزواج هو مقبرة الحب الملهب .
- المرأة عندما تهتم برجل تستطيع أن تعرف عنه ما قد يحمله هو →
عن نفسه .
- من المؤلم للمرأة أن تضطر إلى الاستعاضة عن الحب بالصدقة ،
وأن ترغم على قبول رجلها صديقاً لا عشيقاً .
- المرأة تستطيع أن تعيش مع الحب الميت لأنها تستطيع أن تضع
على قبره في كل يوم زهرة من دموع الذكرى .
- المرأة مثل القمر ، لا تشع ضوءاً من داخل نفسها ، بل تعكس الضوء
الآتى إليها من شمس عقل الرجل .
- آه للمرأة ! إذا ابتليت بالجهل فهي مخلوق تافه . وإذا منحت الذكاء
فهي مخلوق خطر .
- المرأة هي المرأة دائماً سواء ألبست النقاب والخلخال ، أم الوسام
وخوذة القتال .
- الخداع هو الأوكسيجين في هواء كل امرأة ، فأن لم تجد من تخدعه
خدعت نفسها .
- المرأة هي الزهرة المشرقة في بستان وجودنا الأدنى ؛ زهرة لها
نضارتها وعبيرها ، ولكن لها أيضاً أشواكها .
- المرأة الجميلة عدو الرجل المفكر .
- الجنة لا تسمى جنة إذا لم تكن فيها حواء .

● مجد المرأة الخالد هو في أن القدر كتب على الرجل أن ينحني ليطعم من راحتها .

● المرأة فاكهة شهية ينخر فيها الدود .

● منذ فجر التاريخ والمرأة تتزين أى تخدع ، ولقد عرف الطلاء على وجه المرأة قبل أن يعرف على جدران الهياكل .

● لو فهمت البهائم من عاطفة الحب أكثر مما تفهم الآن لما ظلت بهائم دقيقة واحدة .

● خلقت المرأة لتشدنا إلى البهائم بيد ، وترفعنا إلى القديسين بالأخرى .

● المرأة هي الخـلوق العجيب الذى يضم بين ذراعيه السماء والأرض .

● من الساقطات من تبدو فى رذيلتها أمام الناس وفى فضيلتها أمام الله ، ومن الحرائر من تبدو فى فضيلتها امام الناس وفى رذيلتها أمام الله .

● المرأة زهرة البيت وروحه ، بل زهرة المجتمع وروحه . وما البيت أو المجتمع بدونها غير آنية بلا زهر وقارورة بلا عطر .

● المرأة مخلوق تافه ، صنعت من ضلع تافه من أضلاع آدم ، وخرجت من الجنة وأخرجته بسبب تافه .

● الجمال هو العذر الوحيد الذى يغفر للمرأة كل تفاهتها وحماقتها .

- المرأة تصنع الثوب. ولكن الثوب أحياناً هو الذى يصنع المرأة .
- ما أعجب الحب ! - يخرج لنا سعادة من الشقاء ، وشقاء من السعادة .

● المرأة هى السجن الدائم لنا نحن الرجال ، تحبسنا بين جدران بطنها ونحن أجنة ، فاذا خرجنا إلى الحياة وقعنا بين سياج حجرها ونحن أطفال ، فاذا اجتزنا بالكبر تلك السياج تلتقتنا أغلال ذراعها فطوقت أعناقنا حتى الممات .

تم وضع الكتاب فى ١٤ يونيه ١٩٥٢

مؤلفات الحكيم

التي رجعنا إليها في كتابة هذا البحث

أولا : كتب يغلب عليها الطابع الفكري :

- ١ - تحت شمس الفكر (١٩٤٥)
- ٢ - من البرج العاجي (١٩٤١)
- ٣ - تحت المصباح الأخضر (١٩٤٢)
- ٤ - زهرة العمر (١٩٤٤)
- ٥ - حمارى قال لى (١٩٤٥)
- ٦ - فن الأدب (١٩٥٢)
- ٧ - سلطان الظلام (١٩٤٢)

ثانيا : كتب يغلب عليها طابع القصة القصيرة :

- ١ - تاريخ حياة معدة (١٩٥٢)
- ٢ - راقصة المعبد (١٩٤٠)
- ٣ - قصص توفيق الحكيم المجموعة الأولى والثانية (١٩٤٩)
- ٤ - عهد الشيطان (١٩٤٢)
- ٥ - شجرة الحكم (١٩٤٥)

ثالثا : قصص طويلة تخدم أغراضا اجتماعية وقومية واصلاحية :

- ١ - عودة الروح (فى جزئين) (١٩٣٣)
- ٢ - يوميات نائب فى الأرياف (١٩٣٨)
- ٣ - عصفور من الشرق (١٩٥١)
- ٤ - الرباط المقدس (١٩٤٤)
- ٥ - حمار الحكيم (١٩٤٠)

رابعاً : مسرحيات :

(١) تاريخية .

محمد

(١٩٣٦)

(ب) اجتماعية وسياسية :

١ - مسرحيات الحكيم (في جزئين) (١٩٣٧ - ١٩٣٧)

(ويشمل ثمانى مسرحيات)

٢ - مسرح المجتمع (١٩٥٠) (ويشمل احدى وعشرين مسرحية)

(ج) - مسرحيات أسطورية تبرز اتجاهات المؤلف الفكرية والانسانية :

١ - شهرزاد (١٩٣٤)

٢ - أهل الكهف (١٩٣٣)

٢ - پراكسا (١٩٣٩)

٤ - بجماليون (١٩٤٤)

٥ - سليمان الحكيم (١٩٤٣)

٦ - الملك أوديب (١٩٤٨)

(خامساً) مؤلفات أخرى :

١ - نشيد الأناشاد (منظومة منشورة لنشيد الملك سليمان) (١٩٤٠)

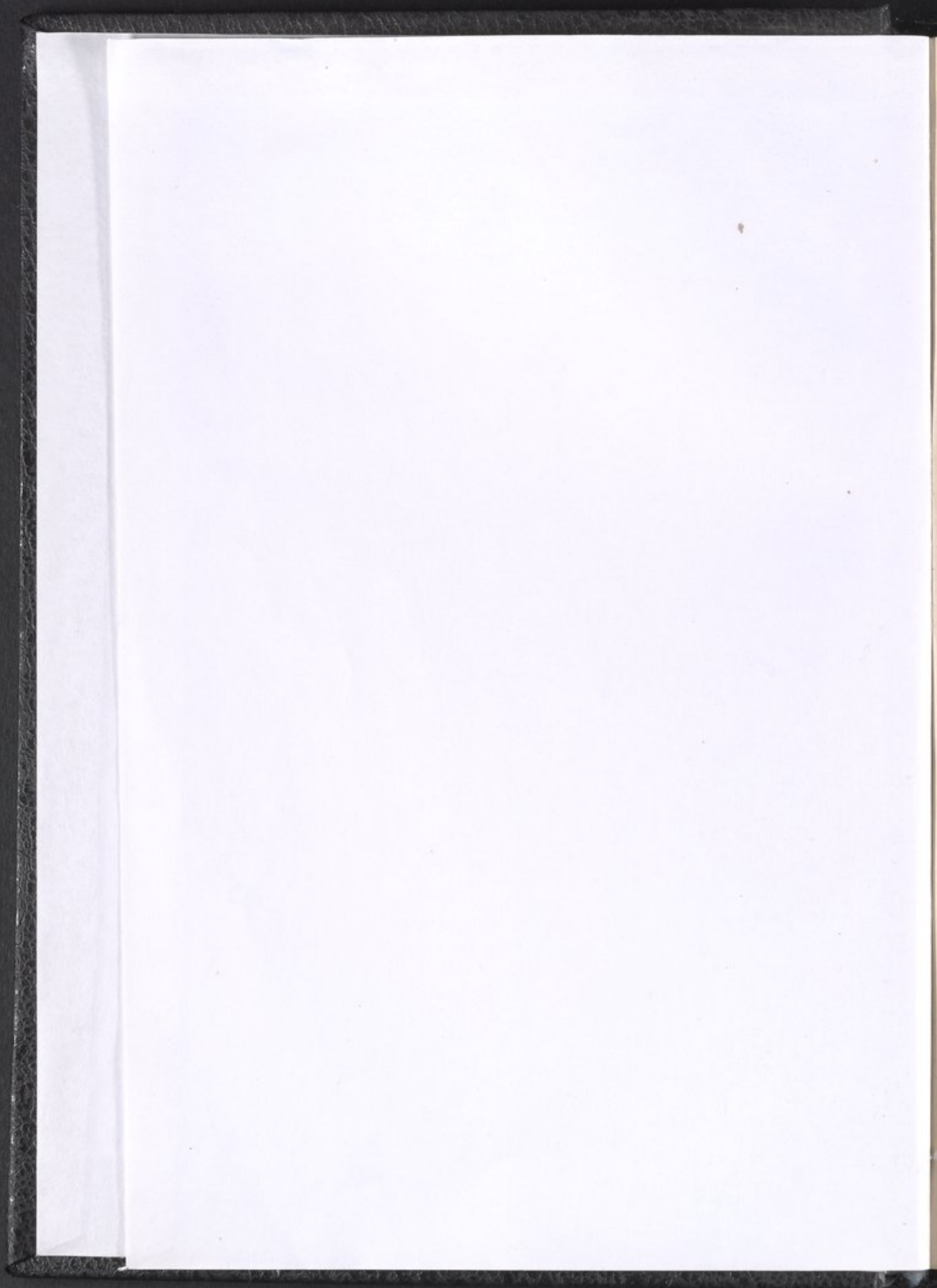
٢ - أهل الفن .

٣ - القصر المسحور (بالاشتراك مع الدكتور طه حسين) (١٩٣٦)

٤ - مقالات نشرت في الصحف .

فہرس

ص	
٣.	الاهداء
٤ ✓	تعريف بالكتاب للمؤلف
٥	مقدمة للدكتور مهدي علام
١٢	حركة التجديد في الأدب العربي الحديث
٣٠	عصره
٤٧ ✓	مشكلة الفكر X
٦٣	في المجتمع
١٠٠ ✓	رائد الحوار
١١٩ ✓	مختارات من مآثراته
١٢٠ ✓	في الإنسانية والمثل العليا X
١٣٠ ✓	في الفن والأدب
١٤٠	في السياسة
١٤٥ ✓	في المرأة والحب
١٤٩	مؤلفات الحكميم التي رجع إليها المؤلف



7 - JUL 2009



